مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

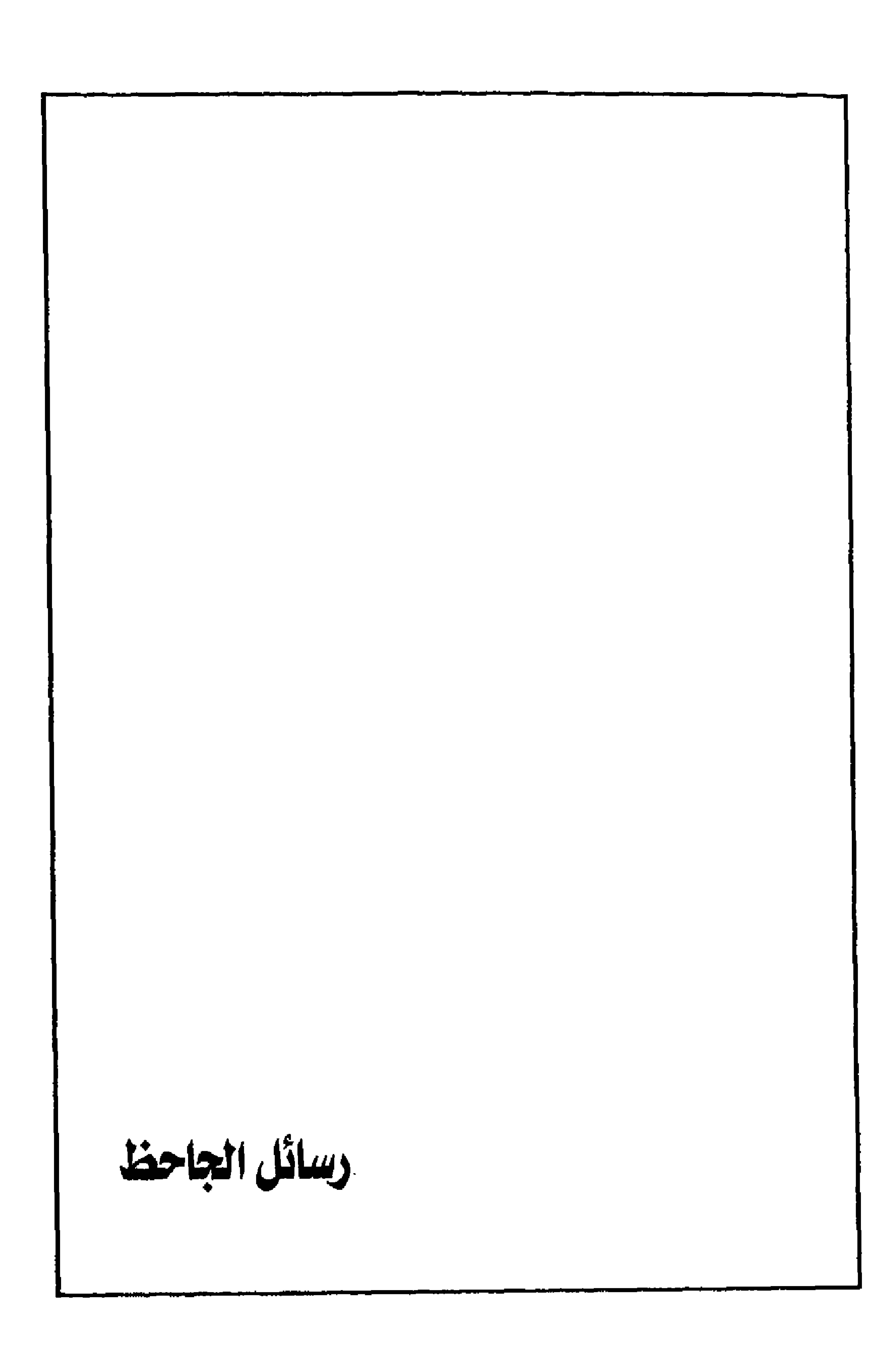
الروائع



مختارات الجاحظ

إختيار
جابر عصفور

الهيئة المصرية
العامة للكتاب


رسائل الجاحظ

بالتعاون مع منظمة اليونسكو

(كتاب في جريدة)

رسائل الجاحظ

الجاحظ



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الروائع)

رسائل الجاحظ

الجاحـظ

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الجاحظ
مُختارات

إلى القارىء: جُعلتُ فداك. إنّما أُخرجُك من شيءٍ إلى شيءٍ، وأُوردُ عليك البابَ بعد الباب، لأنّ من شأن الناس مَلالةَ الكثير، واستثقالَ الطّويل وإنْ كثُرَتْ محاسنُه وجَمّت فوائده. وإنّما أردتُ أن يكونِ استطرافك للآتى قبلَ أن ينقضى استطرافُكَ للماضى؛ ولأنّك متى كنت للشىء متوقّعا، وله منتظرا، كان أحظى لما يَرِدُ عليك، وأشْهى لما يُهدى إليك. وكلٌ مُنتظَرٍ معظّم، وكلٌ مأمولٍ مُكرّم.

كلّ ذلك رغبةً فى الفائدة، وصبابةً بالعلم، وَكلَفًا بالاقتباس، وشُحًا على نصيبى منك، وضنًا بما أؤمّله عندك، ومداراةً لطباعك، واستزادةً من نشاطك. ولأنّك على كلّ حالٍ بَشَر، ولأنّك مُتناهىَ القوّة مدبّر.

«الجاحظ»

الإنسَان

تسميةُ الإنسانِ بالعالَم الأصْغر

أوَ ما علمتَ أنّ الإنسانَ الذى خُلقت السمواتُ والأرضُ وما بينهما من أجْله كما قال عزّ وجلّ: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ جميعاً منْهُ﴾ إنّما سمّوه العالَمَ الصغير سليلَ العالَم الكَبير، لَمَا وجَدوا فيه من جَميع أشكالِ ما فى العالم الكبير، ووجدْنا له الحواسَّ الخمسَ ووجدُوا فيه المحسوساتِ الخمس، ووجدُوه يأكل اللّحم والحَبَّ، ويجمعُ بينَ ما تقتاته البهيمة والسبعِ، ووجدَوا فيه صَوْلَةَ الجمل ووثُوبَ الأسد، وغدْرَ الذئب، ورَوَغان الثعلب، وجُبْنِ الصفْرِد، وجَمْعَ الذّرّةِ، وصنْعةَ السُّرْفة(١)، وجُودَ الديكَ، وإلفَ الكلب، واهتداءَ الحمامِ.

وربّما وجدوا فيه ممّا فى البهائم والسباع خُلُقَين أو ثلاثة، ولا يبلغُ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغَيرته، وصَولته

وحقدُه، وصبرُه على حمْل الثِّقْل، ولا يلزَم شبهُ الذئبِ بقدْرِ ما يتهيَّأ فيه من مثل غدْره ومكْره، واستروَاحه وتوحُّشه، وشدَّة نُكْره. كما أن الرَجلَ يصيبُ الرأىَ الغامضَ المرَّةَ والمرَّتين والثلاثَ، ولا يبلغ ذلك المقدارُ أن يقال له داهيةٌ وذو نَكراء أو صاحبُ بزلاء[٢]، وكما يخطىء الرجل فيفحُش خطؤه فى المرَّة والمرَّتين والثلاث، فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبىٌّ وأبلهُ ومنقوص.

وسمَّوه العالَمَ الصغيرَ لأنهم وجدُوه يصوِّر كلَّ شىءٍ بيده، ويحكى كلَّ صوتٍ بفَمه.

وقالوا: ولأنَّ أعضاءَه مقسومةٌ على البَروج الإثنى عشر والنجومِ السبعة، وفيه الصفراء وهى من نِتاج النار، وفيه السوداء وهى من نِتاج الأرض، وفيه الدمُ وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغَمُ وهو من نتاج الماء. وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة.

فجعلوه العَالَمَ الصغير، إذ كانَ فيه جميعُ أجزائه وأخلاطه وطبائعه. ألا ترَى أنَّ فيه طبائعَ الغضَبِ والرضَا، وآلة اليقين والشكِّ، والاعتقاد والوقف وفيه طبائعُ الفطنة والغَباوة، والسلامة والمكر، والنصيحةِ والغِشِّ، والوَفاء والغدر، والرياء والإخلاص،

والحبَ والبُغْض، والجدِّ والهــزْل، والبــخْل والجُود، والاقــتـصـاد والسَّرَف، والتواضع والكبر، والأنسِ والوحشة، والفكرة والإمـهال، والتمييز والخبْط، والجبْن والشجاعة، والحزم والإضاعة، والتبذير والتقتير، والتبذُّل والتعزز، والادِّخار والتوكُّل، والقَنَاعة والحرْص، والرغبــة والزُّهْد، والسُّخْط والرِّضــا، والصـبـر والجـزَع، والذِّكـر والنسيان، والخوفِ والرجاء، والطمَع.

واليـأسِ، والتنزُّه والطبَع، والشكِّ واليـقـين، والحيـاء والقـحَة، والكتْـمـانِ والإشاعـة، والإقـرار والإنكار، والعلم والجـهل، والظلم والإنصاف، والطلب والهرَب، والحقْد وسرْعة الرضا، والحدَّة وبُعْد الغَضب، والسرُّور والهمِّ، واللَّذة والألَم، والتأميلِ والتمنِّي، والإصرارِ والنَّدَم، والجِماحِ والبَدَوات، والعيِّ والبـــلاغَة، والنطْق والخـــرس، والتـصـمـيمِ والتـوقف، والتـغـافلِ والتـفـاطُن، والعـفـو والمكافأة، والاستطاعةِ والطبيعة. وما لا يحصى عَدده، ولا يُعرَف حدُّه. ■

[من «كتاب الحيوان»]

طبائع الخَلْق

اعلمْ أنّ الله جلّ ثناؤه خلَق خلْقه، ثمّ طبعهم على حبّ اجترار المنافع[٣]، ودفع المضارّ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك. هذا فيهم طبعٌ مركّب، وجبِلّة مفطورة، لا خلافَ بين الخلْق فيه؛

موجودٌ فى الإنس والحيَوان، لم يدعِ غيره مدعٍ من الأوّلين والآخرين. وبقدر زيادة ذلك ونُقصانه تزيد المحبّة والبغضاء؛ فنقصانُه كزيَادته تميل الطّبيعة معهما كميلِ كفّتى الميزان، قلّ ذلك أو كثُر.

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع مَحَابّ العباد ومَكارههم. والنّفس فى طبعها حبُّ الراحة والدّعة، والازدياد والعلوّ، والعزّ والغَلبة، والاستطراف والتنوق[٤]، وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة، والروائح العَبِقة، والطعوم الطّيّبة، والأصوات المونقة،

والملامس اللّذيذة. ومما كراهيتُه فى طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه.

فهذه الخلالُ التى تجمعها خلّتان غرائز فى الفِطَر، وكوامن فى الطّبع؛ جبلّةٌ ثابتة، وشيمة مخلوقة. على أنّها فى بعضٍ أكثرُ منها فى بعضٍ، ولا يعلم قدر القلّة فيه والكثرة إلاَّ الذى دبّرهم.

فعلِم الله أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقَادون إلا بالتأديبَ، وأنَّ التأديب ليس إلاَّ بالأمر والنّهى، وأن الأمر والنهى غير ناجعَين فيهم إلاَّ بالترغيب والترهيب اللذَين فى طباعهم. فدعاهم بالتِّرغيب إلى جنّته، وجعلها عوضاً مما تركوا فى جنب طاعته، وزجرَهم بالتِّرهيب بالنار عن معصيته، وخوّفهم بعقابها على ترك أمره. ولو تَركَهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأُوّل(٥) جروْا على سنَنَ الفطرِة، وعادة الشّمة.

ثم أَقامَ الرَّغبة والرَّهبةَ على حدود العَدل، وموازين النَّصفَة، وعدّلهم تعديلاً متفقا، فقال: ﴿فمن يَعْمل مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه. ومَن يَعمل مثقالَ ذرّةٍ شراً يره﴾.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنّه غير داخلٍ فى تدبيره الخللُ، ولا جائز عنده المحاباة؛ ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممّا وعَده وواعَده،

فتعلَّقت قلوبُ العباد بالرغبة والرَّهبة، فاطَّرَدَ التدبير، واستقامت السِّياسة، لموافقتهما ما فى الفِطرة، وأخذهما بمجامع المصلحة.

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاَّ بما وصفتُ لك من الرغبة والرَّهبة، فأعجزُ الناسِ رأيًا وأخطؤهم تدبيرًا، وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها، مَنْ أمَّلِ أو ظنّ أو رجاَ أنَّ أحدًا من الخلْق ـ فوقه أو دونه أو من نظرائه ـ يُصلح له ضميره، أو يصحُّ له بخلاف ما دبرهم الله عليه. ■

[من «رسالة المعاش والمعاد»]

كون الاجتماع ضروريًا

ثمَّ اعلمْ، رحِمَكَ الله تعالى، أنَّ حاجةَ بعض الناس إلى بعضٍ، صفةٌ لازمةٌ فى طبائعهم، وخلقةٌ قائمةٌ فى جواهرهم، وثابتةٌ لاَ تُزايُلهم، ومُحيطةٌ بجماعتهم، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم، وحاجتُهُمْ إلى ما غاب عنهم ـ مما يُعيشُهم ويُحْييهم، ويمسك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالَهم، ويجْمع شملَهم، وإلى التَعاونُ فى درْكِ ذلك، والتوازُرِ عليه ـ كحَاجَتِهم إلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتوازرِعلى ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التى لم تَغبْ عنهم، فحاجةُ الغائبِ موصُولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معَرِفةِ الأقصى، واحتياجِ الأقصى إلى مَعرفة الأدنى، معانٍ متضمنةٌ، وأسبابٌ متَّصلة، وحبَالٌ منعقدة. وجعل حاجتنَا إلى معرفة أخبارِ منْ كان قبلَنا، كحاجةِ من كان قبلَنا إلى أخبارِ منْ

كان قبلَهم، وحاجَة من يكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البِشاراتُ بالرُّسل، ولم يسخِّرْ لهم جميع خلْقِه، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلْقَه. وجعل الحاجَةَ حاجتَين: إحداهما قوامٌ وقُوت، ولأخرى لذةٌ وإمْتاعٌ وازديادٌ في الآلَة، وفي كلِّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العتَاد. وذلكَ المقدارُ منْ جميع الصنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشهوَاتهم، وعلى قدْر اتساع معرفتهم وبعْدِ غَوْرِهم، وعلى قدْر احتمال طبعِ البشريَّة وفطرةِ الإنسانيَّة. ثم لم يقطع الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أَنْ يفرق بينهم وبين العجْزِ، إلا بعدَم الأُعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نعوتِ العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجَة نفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سُخِّرَ له، فأدناه مُسخَّرٌ لأقصاهِم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيده. ثمَّ جعلَ الله تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خولاً، وفي يده مُذللاً مُيسَّراً إما بالاحتيالِ له والتلطف في إراغَته واستمالته، وإما بالصَّوْلة عليه، والفتكِ به، وإمَا أنْ يأتيه سهواً ورهواً. على أنَّ الإنسانَ لولاَ حاجتهُ

إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها. إلا أنّ الحاجةَ تفترِق فى الجنسِ والجهةِ والجِبِلّة، وفى الحظّ والتقدير.

ثمّ تعبّدَ الإنسَان بالتَفَكرِ فيها، والنظرِ فى أمورها، والاعتبارِ بما يَرَى، ووَصَلَ بينَ عُقولهم وبيَّنَ معرفةِ تلكَ الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكيرِ، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبّت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بمواقعِ حاجاتِهم إليها، وتشاعُرِهم بمواضعِ الحكم فيها بالبيانِ عنها. ■

[من «كتاب الحيوان»]

أثر المدن في روائح الأشياء

وقــد علمنا أنّ لرائحة الطِّيب فضيلةً إذا كان بالمدينة، وأنّ الناسَ إذا وجدُوا ريح النّوى المنقَّع بالعِراق هَرَبوا منه. وأشراف أهل المدينة ينتابُون المواضِعَ التى يكون فيها ذلك، التماساً لطيب تلك الرائحة.

ويزعم تُجّار التُبَّتِ ممن قد دخَلِ الصيِّن والزّابج[٦]، وقلّب تلكَ الجزائر، ونقّب فِى البلاد، أنّ كلّ من أقام بقصبة تُبّتَ اعتراه سُرور لا يدرى ما سببه، ولايزال مبتسماً ضاحكاً من غير عجب حتى يخرجَ منها.

ويزعمون أنّ شِيرازِ من بين قُرى فارس، لها فغمةٌ[٧] طيِّبــة. ومَنَ مَشَى واختلف فى طُرقات مدينة الرّسول ﷺ، وجَدَ منها عرْفًا طيِّبًا وبنّةً عجيبَةً[٨] لا تخفَى على أحدِ، ولا يستطيع أنْ يسميّها.

ولو أدخلتَ كلَّ غـاليـة وكلَّ عطر، من المعـجـونات وغـيـر المعجونات، قَصبة الأهواز أو قصبة أنطاكية لوجدتَه قد تغيَّر وفسَدَ، إذا أقام فيها الشَّهرين والثَّلاثة. ■

[من «كتاب الحيوان»]

العشق والحب والهوى

والعـشقُ داءٌ لا يُملَك دفعه، كـما لا يُستطاعِ دفعُ عَوارضَ الأدواء إلاّ بالحِميـة، ولا يكاد يُنتفَع بالحـميّة مع ما تولّد الأغـذية وتزيد في الطبائعَ بالازدياد في الطُّعم.

وأنا واصفٌ لك حـدَّ العـشق لتـعـرف حـدَّه: هو داءٌ يُصـيـبُ الرُّوح ويشتمل على الجسم بالمجاورة، كما ينال الروح الضعف في البطش والوهن في المرء ينهكه. وداء العـشق وعـمـومه في جـمـيع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم. وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علله، وأنّه يتركّب من وجوهٍ شتّى، كـالحُمَّى الّتي تَعـرض مـركـبَةً من البـرد والبلغم. فـمن قـصـدَ لعـلاج أَحـد الخلطينِ كـان ناقـصاً من دائه زائداً في داء الخلط الآخـر، وعلى حـسب قـوّة أركـانه يكون ثُبـوته وإبطاؤه في الانحـلال. فـالعـشق

يتـركّب من الحُبّ والهَوَى، والمشـاكلة والإلف، وله ابتـداء في المصاعَدة، ووقوفٌ على غاية، وهبوطٌ في التوليد إلى غاية الانحلال ووقف الملال.

والحبُّ اسمٌ واقع على المعنى الذى رُسم به، لا تفـسيـر له غيـره؛ لأنه قـد يقـال: إن المرء يحبُّ الله وأنّ الله جلّ وعزّ يحبّ المؤمن، وإن الرجل يحبُّ ولدَه، والولد يحبّ والدَه ويحبُّ صديقَه وبلدَه وقومَه، يحبُّ على أى جهة يريد ولا يسمّى ذلك عشقاً. فيُعلَم حينئذ أن اسم الحبّ لا يُكتفى به فى معنى العشق حتّى تُضاف إليه العللُ الأُخر إلاّ أنه ابتداء العشق، ثم يتبعه حبُّ الهوى فربّما وافق الحقّ والاختيار، وربّما عَدَل عنهما. وهذه سبيل الهوى فى الأديان والبُلدان وسائر الأمور. ولا يميل صاحبه عن حجّته واختياره فيما يهوى. ولذلك قيل: «عَينُ الهوى لا تصْدُق»، وقيل: «حبُّك الشيءَ يُعمى ويُصمّ». يتخذون أديانهم أرباباً لأهوائهم. وذلك أنّ العاشق كثيراً ما يعشق غير النهاية فى الجمال، ولا الغاية فى الكمال، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة، ثم إن سُئل عن حُجّته فى ذلك لم تقُمْ له حُجّة.

ثم قد يجتمع الحبُّ والهوى ولا يسمَّيان عشقاً، فيكون ذلك في الولد والصديق والبلد، والصِّنفِ من اللِّباس والفُرش والدوابّ. فلم نر أحداً منهم يسقم بدنه ولا تتلف روحُه من حبّ بلده ولا ولده، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعةٌ واحتراق.

وقد رأينا وبلغَنا عن كثير ممن قد تَلِفَ وطال جُهده وضناه بداء العشق.

فعلم أنه إذا أضيف إلى الحبّ والهوى المشاكلةُ، أعني مشاكلةَ الطبيعة، أي حبّ الرجالِ النساءَ وحبٌّ النساءِ الرجالَ، المركّبَ في جميع الفحول والإناث من الحيوان، صار ذلك عشقاً صحيحاً. وإن كان ذلك عشقاً.

فليس إلا مشتقاً من هذه الشهوة، وإلاّ لم يسمَّ عشقاً إذا فارقَت الشهوةُ.

ثم صارت قلّة العيان تزيد فيه وتُوقد نارَه، والانقطاعُ يسعّره حتى يُذهَلَ العقلُ ويَنْهَكُ البدنُ، ويشتغل القلبُ عن كلٍّ نافعة، ويكون خيال المعشوق نُصبَ عين العاشق والغالبَ على فكرته، والخاطر في كلٍّ حالة على قلبه.

وإذا طال العهدُ واستمرَّت الأيام نقص على الفرقة، واضمحلَّ على المطاولة، وإن كانت كلومُه وندوبه لا تكاد تعفو آثارُها ولا تدرس رسومُها.

فكذلك الظَّفَر بالمَعشوق يُسرِع في حَلِّ عِشقِه. والعلّة في ذلك أنّ بعض الناس أسرعُ إلى العشق من بعض؛ لاختلاف طبائع القلوب في الرِّقّة والقسوة، وسرعة الإلف وإبطائه، وقلّة الشّهوة وضعفها. ■

[من «كتاب القيان»]

عن الهزل والمزح

أوّلُ ما أذكرُ من خِصال الهَزْل، ومن فضائل المزْح، أنَّه دليلٌ على حُسنِ الحالِ وفراغِ البال، وأنَّ الجدَّ لا يكون إلا من فضل الحاجة، والمَزْحَ جَمَام، والجدَّ مَبْغَضَةٌ والمَزْحَ محبَّة.

وصاحبُ الجدِّ فى بلاءٍ ما كان فيه، وصاحب المزح فى رخاءٍ إلى أنْ يَخْرُجَ منه.

والجدُّ مؤلم وربَّما عرَّضَك لأشدَّ منه، والمزْح مُلذٌّ وربَّما عرَّضك لألذَّ منه. فقد شاركَه فى التَّعريض للخير والشَّرِّ، وبايَنَه بتعجيل الخَيْر دون الشرّ.

وإنما تشاغَلَ الناس ليفرُغوا، وجَدُّوا ليَهْزِلوا، كما تذلَّلُوا ليعزُّوا، ووكدُّوا ليستريحوا، وإنْ كَان المزاحِ إنما صار معيباً، والهزلُ

مذموماً، لأنّ صاحبَه لا يكون إلاّ معرّضاً لمجاوزة الحدّ، ومُخاطراً بمودّةِ الصديق.

فالجِدُّ داعيةٌ إلى الإفراط، كما أنّ المزاح داعيةٌ إلى مجاوزة القدر والتجاوز للجدّ قاطع بين الفريقين فى جميع النوعين.

فقد ساواه المزح فيما هو له وباينَه فيما ليس له. وإن كان المزْح إنّما صار قبيحاً لأنّ الذى يكون بعده مزْح، وكانَ الجدُّ فى هذا الوزن أقبح، وكان المزِح على هذَا التقدير أحسن، لأنّ ما جعل الشيء قبيحاً أقبحُ من الشيءِ، كما أنّ ما جعل الشيءَ حسناً أحْسَنُ من الشيءِ.

فأمّا الذى عَدَل بينهما فإنّه زعمَ أنّ المِزاحَ فى موضعه، كالجدِّ فى موضعه، كما أنّ المنْع فى حقِّه كالبذْل فى حقّه.

قالَ: ولكلّ شيءٍ موضع، وليس شيءٌ يصلُح فى كلّ موضع. وقد قَسّم الله تعالى الخِيرَة على المعْدَلَة، وأجرى جميعَ الأمور إلى غاية المَصْلحة، وقسّط أجزاءَ المثُوبة على العزيمةِ والرُّخصة وعلى الإعلان والتّقيّةِ، وأمَرَ بالمداراة كَما أمر بالمبادَاة(٩) وجوّز المعاريضَ

كما أمَرَ بالإفصاح، وسوَّغ المُباحَ كما شدَّد أمرَ المفْروض وجعل المُباحَ جَماماً للقلوب، وراحةً للأبدان، وعوناً على معاودة الأعمال، فصار الإطلاقُ كالحَظْر، والصبْرُ كالشكر.

فليس للإنسان من الخيَرَة فى الذِّكر شىءٌ إلاَّ وله فى النسيان مثلُه، ولا فى الفطنة شىءٌ إلاَّ وله فى الغَفْلة مثله، لا فى السرَّاء إلاَ وله فى الضَّرَّاءِ مثلُه.

ولو لم يرزُقِ الله تعالى العبادَ إلاَّ بالصَّواب مَحْضاً، وبالصدق بَحْتاً، وبمُرِّ الحقِّ صفحاً[١٠]، لهلَكت العوامُّ، ولانتقض[١١] أمرُ الخاصّ.

ولو ذكَر الإنسانُ كلَّ ما أُنسِيَه لشَقِيَ، ولَوْ جَدَّ فى كلِّ شىءٍ لانتكث.

وقد يكون الذِّكر إلى الهَلَكة سُلَّما كما يكون النسْيانُ للسلامة سبباً. وسبيلُ المزاح والجدِّ كسبيل المنْع والبذل. وعلى ذلك يجرى جميع القبْض والبسط.

فهذا وما قبله جُمَلُ أقاويلِ القوم.

ونحنُ نعوذُ بالله أن نجعل المزاح في الجملة كالجدِّ في الجملة، بل نزعُم أنَّ بعض الْمَزحِ خيرٌ من بعض الجِدِّ، وعامة الجدِّ خيرٌ من عامَّة الهزل. والحقُّ أن ينضَح[١٢] عن بعض المزْح، ويُحتجّ لجمهور الجِدِّ، وكيف لنا بذمٍّ جميعِ المزْح مع ما نحن ذاكرون.

وقد مزَح رسولُ الله ﷺ. ولا يقال: كان فيه مُزاح، ولا يقال مزَّاح. وكذا الأئمَّة ومن تبذَّل في بعض الحالاتِ من أهل الحِلْم والوقار.

وقال عُمر رضوان الله تعالى عليه: «إنَّا إذا خَلَوْنا كُنَّا كأحَدِكم». وقد كان عُمرُ عبوساً قطوباً.

وكان زيادٌ مع كُلوحِهِ وقُطوبِهِ[١٣]، يمازِح أهلَه في الخلاَ كما يَجِدُّ في المَلاَ.

وكان الحجَّاج مع عُتُوِّه وطُغيانه، وتَمَرُّدِه وشدَّة سلطانه، يُمازِح أزواجَه ويرقِّص صبيانِه.

وقال له قائل: أيمازح الأميرُ أهلَه؟ قال: «والله إنْ تَرَوْني إلاَّ شيطاناً؟ والله لربَّما رأيتُني وإنِّي لأقبِّل رِجْلَ إحداهنَّ!».

فقد ذكرنا خَير العالَمين، وجِلّةً من خيار المسلمين، وجبّاراً عَنيداً، كافراً لَعيناً.

وبعدُ فمن حرّم المِزاحَ وهو شُعبةٌ من شعب السُّهولة، وفَرْعٌ من فروع الطَّلاقة. وقد أتانا رسولُ الله ﷺ بالحنيفيّة السَّمْحة، ولم يأتنَا بالانقباض والقَسْوة، وأمرَنَا بإفشاءِ السلام، والبِشْرِ عند الملاقاة، وأَمَرَنَا بالتوادُ والتّصافح والتّهادى. ■

[من «كتاب التربيع والتدوير»]

ردعلى المتزمّتين

أمّا بعد فإنه ليس كلُّ صامتٍ عن حجّته مبطلاً في اعتقاده، ولا كلُّ ناطقٍ بها لا برهانَ له محقًّا في انتحاله. والحاكم العادلِ مَن لم يعجَلْ بفَصْل القضاء دون استقصاء حُجَج الخصماء، ودون أن يحوّل القول فيمن حضر من الخُصَماء والاستماع منه، وأن تبلغ الحجّة مداها من البيان، ويُشرِك القاضي الخصمين في فهم ما اختصما فيه، حتى لا يكون بظاهر ما يقَع عليه من حكمه أعلمَ منه بباطنه، ولا بعلانيَة ما يُفْلج الخصامَ منه أطبَّ منه بسرّه(١٤). ولذلك ما استعمل أهلُ الحزم والرويّة من القضاة طُولَ الصمت، وإنعامَ التفهُّم والتمهُّل، ليكون الاختيار بعد الاختبار، والحكم بعد التبيُّن.

وقد كُنّا ممسكين عن القول بحجّتنا فيما تضمّنه كتابُنا هذا اقتصاراً على أن الحقّ مكتفٍ بظهوره، مُبينٍ عن نفسه، مستغنٍ

عن أن يُستدَلَّ عليه بغيره؛ إذْ كان إنّما يستدَلُّ بظاهرٍ على باطنٍ، وعلى الجوهر بالعرض، ولا يُحتاج أن يستدَلَّ بباطن على ظاهر.

وعلِمنا أنّ خصماءنا وإنْ موّهوا وزخرفوا، غير بالغينَ للفلَج والغلبة إلى أهل الجهالة والجفاء، وغلَظ الطبع، وفساد الحسّ.

فوضعنا في كتابنا هذا حُججاً على مَن عابنا بملك القيان، وسبّنا بمنادمة الإخوان، ونقَم علينا إظهارَ النِّعم والحديث بها. ورجوناَ النّصر إذ قد بدينا والبادي أظلم، وكاتب الحقّ فصيح ـ ويُروى «ولسان الحقّ فصيح» ـ ونفسِ المُحرَج لا يُقامُ لها، وصوْلة الحليم المتأني لا بقاءَ بعدها.

فبيّنّا الحجّة في اطِّراحِ الغَيرة في غير محرّم ولا ريبة، ثم وصَفْنا فضل النعمة علينا، نقَضْنا أقوال خصمائنا بقولٍ موجزٍ جامعٍ لما قصدْنا. فمهما أطنبنا فيه فللشّرح والإفهام، ومهما أدمجنا وطوينا فليخفّ حمله. واعتمدنا على أنّ المطوّل يقصّر، والملخّص يختصَر، والمطويّ ينشَر، والأصولَ تتفرّع، وبالله الكفاية والعون.

إنّ الفرع لا محالةَ راجعةٌ إلى أصولها، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها، والموالىَ تبعٌ لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة

ومنفردة بالمضادَّة، وبعضها علَّةٌ لبعض، كالغيث علَّة السَّحابَ والسَّحابُ علَّة الماء والرطُوبة، وكالحبّ علَّته الزَّرعُ، والزَّرعُ علَّته الحبّ، والدَّجاجة علَّتها البيضة، والبيضةَ علَّتها الدجاجة، والإنسان علَّتهُ الإنسان.

والفَلَك وجميع ما تحويه أقطار الأرض، وكلٌّ ما تُقلُّه أكنافها للإنسان خولٌ ومتاعٌ إلي حين. إلاَ أنّ أقربَ ما سُخِّر له من روحه وألطفَه عند نفسه «الأنثى»؛ فإنّها خُلقَتْ له ليسكنَ إليها، وجُعلَت بينه وبينها مودّة ورحمة.

ووجب أن تكون كذلك وأن يكون أحقٌ وأولى بها مِن سائر ما خُوِّل إذْ كانت مخلوقةً منه. وكانتَ بعضاً له وجزءاً من أجزائه، وكان بعضُ الشيء أشكلَ ببعض وأقرب به قُرباً من بعضه ببعض غيره. فالنساء حرثٌ للرجال، كما النباتُ رِزْقٌ لما جُعل رِزْقاً من الحيوان.

ولولاَ المحنة والبلوى في تحريم ما حُرِّم وتحليل ما أُحلّ، وتخليص المواليد من شبهات الاشتراك فيها، وحصول المواريث في أيدى الأعقاب، لم يكن واحدٌ بواحدة منهن من الآخَر، كما ليس بعضُ السوَّامِ أحقَّ برعْى مواقع السَّحاب من بعض، ولكان الأمر

كما قالت المجوس: إنّ للرجل الأقربَ فالأقربَ إليه رحماً وسبباً منهنّ. إلا أنّ الفرض وقع بالامتحان فخصّ المطلق، كما فعل بالزّرع فإنّه مرعىً لولد آدم ولسائر الحيوان إلا ما مَنعَ منه التحريم.

وكلُّ شيءٍ لم يُوجَد محرَّمًا فى كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ فمباحٌ مُطْلَق. وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياسٌ ما لم نُخرِج من التحريم دليلاً على حُسْنه، وداعياً إلى حَلاَله.

ولم نعلم للغَيرة فى غير الحرام وجهاً، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزمَنا قياس مَن أحقُّ بالنساء؛ فإنَّه كان يقال: ليس أحدٌ أولى بهنّ من أحد، وإنّما هنّ بمنزلة الشمام والتُّفَّاحِ الذى يتهاداه الناسُ فيما بينهم. ولذلك اقتصرَ من له العِدَّة على الواحدة منهنّ، وفرّق الباقى منهنّ على المقرّبين. غير أنّه لما عزم الفريضة بالفرْق بين الحلال والحرامِ، اقتصر المؤمنون على الحدِّ المضروب لهم، ورخّصوه فيما تجاوزه. فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجابٌ، ولا كانوا يرضَون مع سقوط الحجاب بنظرة الفَلْتة ولا لحظة الخُلْسة، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامَرة، ويزدوجوا فى المناسمة والمشافَنَة(١٥)، ويسمّى المولَع بذلك من الرّجال الزِّير، المشتقّ من الزيارة. وكلّ ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج، لا ينكرون ما

ليس بمنكر إذا أمنوا المُنكَر، حتّى لقد حَسِكَ في صدر أخي بُثَينة من جميل ما حَسِكَ[16] من استعظام المؤانسة، وخروج العُذر عن المخالطة، وشكا ذلك إلى زوجها وهزّه ما حشَمه، فكَمَنا لجميلٍ عند إتيانه بُثينة ليقتلاه، فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحناً لها: هل لك فيما يكون بين الرِّجال والنساء، فيما يَشفى غليل العشق ويُطفىء ثائرة الشوق؟ قالت: لا. قال: ولم؟ قالت: إنّ الحُبّ إذا نكِح فَسَد! فأخرج سيْفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه، فقال: أمَا والله لو أنْعَمتِ لي لملأتُه منك! فلمّا سمعا بذلك وثقا بغَيبه ورِكنا إلى عفافِه، وانصرفا عن قتله، وأَبَاحاه النظَرَ والمحادثة.

فلم يزل الرِّجال يتحدّثون مع النساء، في الجاهلية والإسلام، حتّى ضُرب الحجاب على أزواج النّبي ﷺ خاصّة.

وتلك المحادثة كانت سببَ الوُصلة بين جَميلٍ وبثينة، وعَفراء وعُروة، كثير وعزّة، وقَيسٍ ولُبنى، وأسماءَ ومرقّش، وعبد الله بن عَجْلان وهِنْد.

ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرِّجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية.

[من «كتاب القيان»]

عتاب استعطاف

جُعلْتُ فداك. ليس من أجل اختيارى النَّخَلَ علىَ الزَّرعَ أقصيتنى، ولا على ميلٍ إلى الصَّدقة دون إعطائى الخراج عاقبتنِي، ولاَ لبُغضى دفْعَ الإتاوة والرضا بالجِزية حَرمتنِي.

ولستُ أدرى لَم كَرِهت قُربى وهَويت بُعدى، واستثقلتَ روحى ونَفْسى واسَطلتَ عُمرى وأيامَ مقَامى. ولِم سرَّتك سيِّئتى ومصيبتِى وساءتك حسنتِى وسلاَمتى، حتّى ساءكَ تجمُّلِى بقدر ما سرَّك جزَعى وتضجُّرى، وحتى تمنَّيت أنْ أخطىء عليكَ فتجعل خطئى حجَّةً لك فى إبعادى، وكَرِهتَ صوابى فيك خوفًا من أن تجعله ذريعةً لَك إلى تقريبى.

فإن كان ذلك هو الذى أغضبكَ، كان هو السببَ لموجدتك فليس ـ جُعلت فداكَ ـ هذا الحقدُ فى طَبقة هذا الذَّنب، ولاَ هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة.

ولو كـان إذ لـم يكن فى وزنه وقَعٍ قـريباً، وإذْ لـم يكن عـدلَه وقعَ مُشْبِـهـا كـانَ أهونَ فى مـوضع الضَّرر، وأَسـهلَ فى مـخـرج السَّماع.

فأىّ شيءٍ أبقَّيْتَ للعدوّ المكاشِف والمنافق الملاطفِ، وللمعتمد المصرِّ وللقادرَ المدلّ.

ومَن عاقبَ على الصَّغير بعقوبة الكبير، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار، وعلى الخطأ بعقوبة العَمَد، وعلى معصية المتَستِّر بعقوبة معصية المعلِن، ومن لم يفرق بين الأعـالِى والأسـافل، وبين الأقاصى والأدانى، عاقَبَ على الزّنى بعقوبة السِّرقةِ، وعلى القتل بعقوبة القَذْف. ومن خرج إلى ذلك فى باب العقـاب خـرج إلىٰ مثله فى باب الثّواب. ومِن خَرَجَ من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل، كان بغاية العقاب أحقّ، وبه أولى.

والدَّليلُ على شدّة غيظكِ وغليان صدرِك قُوَّةُ حركتك وإبطاء فترتك وبُعد الغاية فى احتيالك. ومن البرهان على ثبات الغضب، وعلى كظم الذنب تمكُّن الحقد ورسوخ الغيظ، وبُعد الوثبة وشدّة الصَّولة.

وهذا البرهان صحيحٌ ما صحّ النظم، وقامِ التعديل، واستوت الأسباب. ولا أعلم ناراً أبلغَ فى إحراق أهلها من نار الغيظ، ولا حركة أنقض لقوّة الأبدان من طلب الطوائل[١٩] مع قلة الهدوء والجهلِ بمنافع الجَمَام[٢٠]، وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير.

ولا أعلم تجارة أكثرَ خُسراناً ولا أخفَّ ميزاناً من عَداوة العاقل العالِم، وإطلاقِ لسان الجليس المُداخِل، والشعارِ دونَ الدِّثار[٢١]، والخاصِّ دون االعامّ.

والطالبُ ـ جُعلتُ فداك ـ بعُرْض ظَفَرٍ ما لم يَخرج المطلوب، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة. ومن الحزم ألاّ تخرج إلى العدوّ إلاّ ومعك من القُوى ما يغمر الفَضْلة التى ينتجها له الإخراج. ولابدّ أيضاً من حزمٍ يحذّرك مَصارعَ البغْى، ويخوّفك ناصر المطلوب.

وبَعدُ ـ أبقاك الله ـــ فأنت على يقينٍ من موضع ألم الغيظ من نفسك، والغيظ عذاب. ولربّما زاد التشفّى فى الغيظ ولم ينقص منه. ولستُ على يقين من نفوذ سهمك فى صيْدك كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك.

والحازم لا يلتمس شفاءَ غيظه باجتلاب ضعْفه، ولا يطفىء نارَ غضبه تأخرُ عقوبةِ من أغضبَه، ولا يسدّد سهمَه إلاّ والغرضُ ممكن، والغاية قريبة، ولا يهرب إلاّ والمهرل معَجزة.

إنّ سلطان الغيظ غَشوم، وإنّ حكم الغضَب جائر، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعفَ ما يكون الحزم. والغضب فى طباع شيطان، والهوى يتصوّر فى صورة امرأةَ، فلا يُبصر مَساقط العيب ومواقعَ الشّرف إلاّ كلٌّ معتدلِ الطباع، ومعتدلِ الأخلاط مستوِى الأسباب.

والله لقد كنت أكره لك سرفَ الرضا مخافةَ جواذبه إلى سرَف الهوى. فما ظنُّك بسرف الغضب، وبغلَبة الغيظ، ولاسيّما ممّن قد تعوّدَ إهمالَ النّفس ولم يعوّدها الصبر، ولم يعرِّفْها موضعَ الحظّ فى تجرُّع مرارة العفو، وأن المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها.

ولقد كنت أشفق عليك من إفراط السُّرور فما ظُنك بإفراط الغَيظ. وقد قال بعض الناس: لا خير فى طول الرّاحة إذا كان يُورث الغفلة. ولا فى الكفاية إذا كان يؤدّى إلى المعَجَزة، ولا فى كثرة الغنى إذا كان يخرج إلى البلدة.

جُعِلْتُ فداك. إنّ دَاء الحزنِ وإن كان قاتلاً فإنه داءٌ مُماطل، سقمه سقم مُطاول، ومعه من التمهُّل بقدر قسطه من أناة المِرَّة السوداء. وداء الغيْظ سفيهٌ طيَّاش، وعَجولٌ فَحَّاش، يعجِل عن التوبة، ويقطع دون الوصيّة، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب المِرَّة الحمراء. والعَجول يخطىء وإن ظفر، فكيف به إذا أخفق. على أنَّ إخفاقَه يزيد فَى حقيقة خطئه كما أنَّ ظفَره لا ينتقص من مقدار زلله. وأنت روحٌ كما أنت وحشىٌ من قرنِك إلى قدمك. وعمل الآفة فى الدِّقاقَ والعتاق أسرع، وحدُّها عن الغلاظ وغلَبته. إنَّ الخير ـ أبقاك الله ـ فى أيام كثرته كان قليلاً فما ظنُّك به فى أيام قِلّته، وإن الشرَّ فى أيام قِلّته كان كثيرًا فما ظنُّك به فى أيّام كثرته، وأنت غَريبٌ فى المصطَنعين. وأنا غَريبٌ فى الصنائع، والغريب للغريبَ نسيب، ونسب المشاكلة وقرابة الطبيعةِ الموافقة، أقربُ من نَسَب الرحمِ؛ لأنَّ الأرحامَ مُولعَةٌ بالتحاسد، لهِجة بالتقاطع، وأن التحابٌ على طبع المشاكلةَ. والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة، أبعد من التفاسد، وأبعد من التعادى. وسببُ التعادى عَرَض فى طبائع الغرباء، وجوهرٌ فى طبائع الأقرباء.

واعلمْ أنّك لاتزالُ فى وحشة إلى وحشة، وفى غربة إلى غُربة، وفى تنكُّر العيش وتسخُّطِ الحال، حتى تجد من تشكو إليه بثَّك، وتُفضى إليه بذاتِ نفسك. ومتى رأيت عجباً لم تضحككَ رؤيتك لَه بقدر ما يضحكَك إخبارُك إياه. فمَنْ أغلبُ عليك ممَّن كانت هذه حالةَ منك، وموقعه من نفسك.

ولو أنَّ شيبتى التى بها استعطفتُك، وكَبر سنّى التى بها استرحمتك، اللتان لم يحدُثا علىَّ إلا وأنا فى ذَراك، ولم يُحلاَّ بى إلاَّ وأنا فى ظلِّك، لكان فى شفاعة الكِبَر، واسترحام الضّعف والوَهْنة، ما يَردعُك عنّى أشدَّ الردع، ويؤثّر فى طباعك أبينَ الأثر. فكيف وقد أكرمتنى جديداً، ثم تريد أن تُهيننى خَلَقاً، وقوّيت عظمى أغلظَ ما كان، ثم تريد أن توهنه أرقَّ ما كان. وهل هرِمتُ إلاّ فى طاعتك، وهل أخلقنى إلاّ معاناة خدمتك!. ■

[من «رسالة فى الجد والهزل»]

صــورة

كان لنا بالبَصرة قاضٍ يُقال له عبدُ الله بن سوّار، لمْ يَرَ النّاسُ حاكماً قطُّ ولا زِمّيتاً ولا ركيناً[٢٢]، ولا وقوراً حليماً، ضبَطَ من نفسه وملَكَ من حركته مثلَ الذى ضبَط وملَك. كان يصلّى الغداةَ فى منزله، وهو قريب الدّار من مسجده، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتّكيء، فلا يزالُ منتصباً لا يتحرّك له عضوٌ، ولا يلتفت، ولا يحلُّ حُبْوَته[٢٣] ولا يحوِّل رِجْلاً عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقّيه، حتّى كأنّه بناءٌ مبنىٌّ، أو صخرةٌ منصوبة. فلاَ يزال كذلك، حتّى يقوم إلى صلاة الظهر ثمّ يعودُ إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر، ثَمّ يرجع لمجلسه، فلا يزال كذلك حَتى يقوم لصلاة المغرب، ثمّ رُبما عاد إلى محلّه، بل كثيراً ما كان يكون ذلكَ إذا بقى عليه من قراءة العهود والشّروط والوثائق،

ثم يُصلِّى العشاء الأخيرة وينصرفَ. فالحقّ يقال: لَمْ يَقُمْ فى طول تلك المدَّة والولاية مرَّةً واحدةً إلى الوضوء، ولا احتاجَ إليَه، ولاَ شَرِبَ ماءً ولا غيره من الشَّراب. كذلك كانَ شأنُه فى طوال الأيام وفى قصارها، وفى صيفها وفى شتائها. وكان مع ذلك لا يحرِّك يده، ولا يشيرُ برأسِه. وليس إلاّ أن يتكلمَ ثمَّ يوجز، ويبلغ بالكلامِ اليَسير المعانى الكثيرة. فبينا هو كذلك ذاتَ يومٍ وأصحابه حواليه، وفى السَّمـاطين(٢٤) بينَ يديه، إذْ سقطَ على أنفه ذبَابٌ فأطال المكث، ثمَّ تحوّل إلى مُؤْقِ عينه، فَرام الصَّبر فى سقوطه عَلَى المؤق، وعلى عضّه ونفاذ خرطومه كما رَام من الصبر عَلى سقوطه عَلَى أنفه من غير أن يحرِّك أرنبتَه، أو يغضِّن(٢٥) وجهَه، أو يذبَّ بإصبعه. فلمّا طال ذلك عليه من الذبَاب وشغَله وأوجعَه وأحرقَه، وقصدَ إلى مكانٍ لا يحتمل التَّغافُلَ، أطبَق جفنَه الأعْلى عَلَى جفنه الأسفلِ فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن وَالَى بينَ الإطباقِ والفَتْح، فتنحَّى ريثما سكنَ جفنهُ، ثمَّ عاد إلى مؤقه بأشدَّ من مرَّته الأولى فَغَمَسَ خرطومهُ فى مكَان كان قد أوهاهُ قبلَ ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزه عن الصبّر فى الثانية أقوى، فحرَّك أجفانَه وزاد فى شدَّة الحركة وفى فتح العين، وفى تتابعُ الفتْح والإطباق، فتنحَّى

عنهُ بقدْرِ ما سكَنَتْ حركتهُ ثمَّ عاد إلى موضعه، فمازالَ يلحُّ عليه حتى استفرغَ صبْرَه وبَلَغَ مجهُوده. فلم يجدْ بُداً من أن يذبَّ عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه ترمُقه، وكأنّهم لاَ يَرَوْنَه، فتَنَحّى عنه بقدْر ما ردَّ يدَه وسكَنتْ حركته ثمَّ عاد إلى موضعه، ثمَّ ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجْهه بطَرَف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابَعَ بين ذلك، وعلم أن فعلَه كلّه بعيْن مَنْ حَضَره من أمنائه وجلسائه. فلَمَّا نظروا إليه قال: أشهد أنَّ الذُّباب ألَحُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب! وأستَغفر الله! فما أكثر مَن أعجبتْه نفسُه فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعرِّفه من ضعْفه ما كان عنهُ مستوراً! وقد علمت أنِّي عند الناسِ مِنْ أزْمَت الناس[٢٦]، فقد غلَبَني وفَضَحَني أضعَفُ خلْقه! ■

[من «كتاب الحيوان»]

الشك واليقين

اعرفْ مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبةَ له؛ لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشّكّ في المشكوك فيه تعلُّما. فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرّفُ التوقُّف ثمّ التثبُّت، لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه.

ثمّ اعلم أنَ الشكّ في طبقات عند جميعهم. ولم يُجمعوا على أنّ اليقينَ طبقات في القوّة والضّعف.

ولمّا قال ابن الجهم للمكّيّ: أنا لا أكاد أشكُّ! قال المكّيّ: وأنا لا أكادُ أوقن! ففخر عليه المكّيّ بالشّكّ في مواضعِ الشّك، كما فخر عليه ابنُ الجهم باليَقين في مواضع اليقين.

وقال أبو إسحاق: نازعت [من] الملْحدين الشاكّ والجاحد فوجدتُ الشُّكّاك أبصرَ بجوهر الكلام من أَصحاب الجحود.

وقالَ أبو إسحاق: الشكّاكُ أقربُ إليك من الجاحد، ولم يكنْ يقينٌ قط حتى كان قبله شَكٌّ، ولمْ ينتقل أحدٌ عن اعتقادٍ إلى اعتقاد غيره حتّى يكونَ بينهما حالُ شكٍّ.

وقال ابنُ الجهم: ما أطمعَنى فى أوْبة المتحيّرا لأنّ كل من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالّته التبيُّن، ومَنْ وَجد ضالّته فرِح بها.

وقال عمرو بن عُبيد: تَقرير لسانِ الجاحد أشدٌّ من تعريفِ قلب الجاهل.

وقال أبو إسحاق: إذا أردتَ أن تعرف مقدار الرّجُل العالِم، وفى أىِّ طبقةٍ هو، وأردت أن تدخله الكور وتنفخ عليه؛ ليظهرَ لكَ فيه الصّحّةُ من الفسادَ، أو مقدارُه من الصّحّة والفَساد، فكن عالما فى صورة متعلّم، ثم أسأله سؤالَ مَن يَطمع فى بلوغِ حاجتهِ منه.

والعَوامٌّ أقلٌّ شَكوكاً من الخواص؛ لأنهم لا يتوقفون فيِ التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاّ الإقدام على التّصديق المجرّد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشّكّ التى تشتَمل على طبقَات الشك، وذلك على قدرِ سُوء الظّنّ وحُسن الظّن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب. ■

[من «كتاب الحيوان»]

سخرية وتهكّم

كـان أحمد بن عبد الوهّاب مُفرط القِصرَ ويدْعى أنه مفرط الطول، وكان مربعاً وتَحسبه لسَعة جُفْرته واستفاضة خاصرته مدوّراً؛ وكَان جَعْد الأطراف قصيرَ الأصابع، وهو فى ذلك يدعى السَّباطة والرَّشاقة وأنه عتيقُ الوجه أخمصُ البطن معتدلُ القامة تامُّ العظْم؛ وكان طويلَ البَاد رفيعُ العمَاد عاديُّ القامة عظيمُ الهامَة، قد أعطى البَسْطَةَ فى الجسم والسَّعـةَ فى العِلم؛ وكـان كـبيـر السّنّ متـقـادمِ الميلاد، وهو يَدّعى أنه معتدلُ الشباب حديثُ الميلاد.

وكـان ادّعـاؤُه لأصناف العِلم على قـدْر جـهله بهـا، وتكلُّفُه للإبانة عنها على قدر غَباوته عنها؛ وكـان كـثير الاعتراض لهجاً بالمرء شديدَ الخلاف كَلِفاً بالمجاذبة متتابعاً فى العُنودَ مُؤثراً للمغالَبة، مع إضـلال الحُجّة والجَـهلِ بموضـع الشُّبـهـة والخطْرَفـة عند قَصَرْ

الزاد والعَجْز عند التوقُّف والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ومغبَّة فساد القلوب ونكد الخلاف وما فى الخوْضَ من اللغْو الداعى إلى السهْو وما فى المعاندة من الإثم الداعى إلى النار وما فى المجاذبة من النكْد وما فى التغالب من فقْدان الصواب.

وكان قليل السَّماع غُمْراً وصُحُفياً غُفْلاً، لا ينطِق عن فكر ويثق بأوَّل خاطر، ولاَ يفصِل بين اعتزامِ الغُمْرِ واستبصار المُحقْ؛ يَعُدّ أسماءَ الكُتُب ولا يَفهم مَعَانيَها، ويحسُد العلماء من غير أن يتعلّق منهم بسبب؛ وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب.

فلما طال اصطبارُنا حتى بلغ المجهود منّا وكدنا نعتاد مذهبَه ونألفُ سبيلَه، رأيتُ أن أكشف قناعه وأبدىَ صفحتَه للحاضر والبادى وسُكَّان كلّ ثغْر وكل مصر، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأُ فيها وأعرِّفُ الناسَ مقدارَ جهله، وليسأله عنها كلّ مَن كان فى مكّة ليكفّوا عنّا منْ غرْبِهِ، وليردّوه بذلك إلى ما هو أولى به.

(...)

أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك. قد علمت حفظك الله، أنك لا تُحسد على شيء حسدك على حسن القامة،

وضخم الهامة، وعلى حور العين وجودة القدّ، وعلى طيب الأحدوثة والصنيعة المشكورة. وأن هذه الأمور هى خصائصك التى بها تكلف، ومعانيك التى بها تلهج... وبعد، وأبقاك الله فأنت فى يدك قياس لا ينكسر، وجواب لا ينقطع، ولك حدّ لا يفلّ، وغرب لا ينثنى وهو قياسك الذى إليه تنسب، ومذهبك الذى إليه تذهب، أن تقول: وما علىّ أن رآنى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً، وأنا عند الله طويل جميل، وفى الحقيقة مقدود رشيق. وقد علموا، أبقاك الله، أن لك مع طول البادّ راكباً طول الظهر جالساً. ولكن بينهم فيك إذا قمت إختلاف، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائلِ، ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنّا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك، فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب. فياشعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول! بل ما يهمك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سُمكك، وإن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً. ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك، وإذ

قد سلموا لك بالرّغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصلت ما سلّموا وأنت على دعواك فيها لم يسلموا. ولعمرى أن العيون لتخطىء وأن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع إلاّ للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلاّ للعقل، إذ كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواسّ... ■

[من «كتاب التربيع والتدوير»]

حَسَدُ العلماء

إنه لم يخْلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلاَّ وفيه علماء محقِّقون، قد قرءوا كتب مَن تقدَّمهم، ودرسوا أهلهَا، ومارسوا الموافقين لهم، وعنَوْا لمخالفين عليهم، فَمَخَضوا لحكمة وعجموا عيدنها، ووقفوا على حدود العلوم، فحفظوا الأمَّهات والأصول، وعرفوا الشرائع والفروع، فَفَرقوا ما بين الأشباه والنظائر، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس، ووصلوا بين المتجاور والمتوازى، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البيِّن، واستظهروا على الخفىِّ المشكل بالمكشوف المعروف، وعرفوا بالفهم الثَّاقب والعلم الناصع، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفطنة، فوضعوا الكتب فى ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم، والأخلافِ من بعدهم. يزدلفونَ بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضل المعرفة التى ركَّبها الله

فيـهم، وأبانهم من غيـرهم، وفضّلهم عليـهم، ويبـاهون به الأمم المخالفة لهم، ويتبارون بذلك فيما بينهم. ولهم حُسّادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب، منتحلةٌ يدْعون مثلَ دعويهم، قد وسَموا أنفسَهم بسمات الباطل، وتَموّا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة، ولبسوا لباس الزُّور متزخرفين متشبّعين بما لا محصول له(٢٧).

يحتذون أمثلة المحقّين في زيّهم وهَديهم، ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وألحاظهم، وحركاتهم وإشارتهم، ليَنسَبوا إليهم ويُحلّوا محلّهم، فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ الضعفاءِ العامّة، وجهلاءِ الملوك، واتّخَذهم المعادُون للعلماءَ المحقّين عُدّةً يستظهرون بهم عند العامّة. وحمل المدّعيةَ للعلم المزوِّر الحسدُ على بَهْت العلماء المحقّين، (...) وجرّأهم على ذلك ما رأوْا من صَغْو ضَعَفة القلوب وإذلّة الناس إليهم، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم، وأمّلوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة، وتستوىَ لهم الرّياسة على طَغام الناس ورَعاعهم، ويستخولوا رُعَاتَهم وقومَهم، (...)، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم، وهتكوا ستراً كان مُسدَلاً عليهم بالصّمت.

فقد قيل: «الصمت زَينُ العالم، وستْر الجاهل»؛ طمعاً في الرياسة وحبًّا لها. وقد قيل: حبٌّ الرياسة داءٌ لا دواء له.

وقلَّما تَجِدُ الراضين بالقسَمِ ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو. وهلاك من هلك من الأمم فيما سلف بحبٍّ الرياسة. وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدّهر فبحبٍّ الرياسة.

وقد قيل: هلاك الناسِ منذ كانوا إلى أن تأتيَ الساعةُ بحبٍّ الأمر والنّهى، وحبٍّ السّمع والطاعة. فأشكل على العامّة أمرُ العالم الحقيقىّ والمدَّعى المجارى المنتحلِ للزُّور والباطل؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التى يعمى لها السبيل الواضح والطَّريق المنشأ، على الجاهل المستعضف؛ وذى الغَبَاء المسترهَف. ■

[من «كتاب فصل بين العدوة والحسد»]

بخلاء

زُبَيْدة بن حُمَيْد

وأما زُبَيْدَةَ بنُ حُميدِ الصَّيرفى، فإنّه استلف مِن بَقَّال كان على باب داره دِرْهمين وقيرطا. فَلَمَّا قضاه بعد ستّة أشهر، قضاه درهمين ثَلاَثَ حبّات شَعير. فاغتاظ البقّالُ، فقال: سبحان الله! أنت رَبُّ مائة ألف دينار، وأنا بقّال لا أملك مائة فَلْسٍ، وإنّما أَعيش بكَدّى، وبستفْضال الحبّة والحبّتين. صاح على بابك حَمَّالٌ، والمال لم يَحْضُرك، وغاب وكيلُك، فَنَقَدتُ عنك درهمين وأربعَ شعيرات. فقضيتَنى بعدَ ستّة أشهر درهمين وثلاثَ شَعيرات. فقال زُبَيْدَة: يا مجنون! أسلفتنى فى الصيف، فقضيتُك فى الشتاء. وثلثُ شعيرات شَتْوِيَّة نَدِيَة، أَرْزَن[٢٨] من أربع شعيرات يابسة صيْفيّة. وما أشكُّ أنّ معك فَضْلا؟

وحدّثنى أبو الأصْبَغ، بن ربْعىّ، قال: دخلتُ عليه بعد أن ضرب غلْمانه بيوم، فقلت له: ما هذا الضب المُبرّح[٢٩]؟ وهذا الخُلُق السّىّء؟ هؤلاء غِلمان، ولهم حُرْمه وكفية وتربية. وإنما هم ولَد. هؤلاء كانوا إلى غير هذا أحْوَجَ. قال: إنك لست تَدْرى أنّهم أكلوا كل جُوارِشْنٍ كان عندى!

قال أبو الأصْبَغ: فخرجتُ إلى رئيس غلمانه، فقلتُ: ويْلَك! مالَكَ وللجُوَارِشْنِ؟ وما رَغْبَتُك فيه؟ قال: جُعلتُ فداك! ما أَقدر أن أكلّمك من الجوع إلا وأنَا متّكىء! الجُوَارِشْنُ! ما أصنعُ به؟ هو نفْسُه ليس يشْبِع، ولا نحْتاج إلى الجُورِشْنِ، ونحن الذين إنّما نسمع بالشّبَع سماعا مِن أَفواه الناس! ما نَصْنَعُ بالجُورِشْن؟

واشتدّ على غلمانه فى تَصْفية الماء، وفى تبْريده وتزميله[٣٠] لأصحابه وزوّاره. فقل له غَازى أبو مُجَاهد: جُعِلتُ فِدَاكِ! مُرْ بتزميل الخبز وتكثيره، فإن الطَعام قَبْلَ الشراب.

وقال مرّةً: ياغلام، هاتِ خُوان النّرْد، وهو يريد تَخْتَ النرْد. فقال له غازى: نحن إلى خِوان[٣١] الخبز أحْوَجُ.

وسَكِر زبيدةُ ليلةً فكسا صديقاً له قميصً. فلما صار القَمَيصُ على النديم خاف البَدَوَاتِ[٣٢]، وعلم أن ذلك من هَفَوَاتِ السُّكْر. فمضى من ساعته إلى منزله، فجعله بَرْنكَاناً[٣٣] لامرأته.

فلما أصبح[٣٤] سأل عن القميص وتَفَقَّده[٣٥]، فقيل له: إنَّك قد كَسَوْته فُلانا.

فبعث إليه، ثم أقبل عليه، فقال: ما علمتَ أنَّ هِبَة السَّكرِان وشِراءِه وبيعَهُ وصدقته وطَلاَقه لا يجوز؟

وبعدُ، فإنّي أكره ألاّ يكون لي حَمْدٌ، وأن يُوَجِّه الناس هذا منِّي على السكر. فرُدَّه عليّ، حتى أهبَهُ لك صَاحياً عن طيب نفس؛ فإنّي أكره أن يذهب شيء من مالي باطِلاً.

فلما رآه قد صَمَّم، أقبلَ عليه فقال: يا هَنَاه[٣٦]! إنَّ الناس يَمزْحُون ويلعبون، ولا يُؤَاخَذُون بشيء من ذلك. فردُّ القميص، عافاك الله! قال له الرجل: إنّي والله قد خِفتُ هذا بعينه؛ فلم أضَعْ جَنْبي إلى الأرض حتى جيبّته[٣٧] لامرأتي. وقد زدتُ في الكُمَّين، وحذفتُ المقَاديم[٣٨]. فإن أردتَ بعد هذا كلِّ أن تأخذه فَخُذْه.

فقال: نعم آخذه، لأنّه يصلُح لامرأتى كما يصلُح لأمرأتك. قال: فإنّه عند الصبّاغ. قال: فهَاتِه. قال: ليس أنا أسلمتُه إليه.

فلما علم أنّه قد وقع قال: بأبى وأمى رسولُ الله ﷺ، حيث يقول: جُمِع الشّر كلّه فى بيتٍ وأغلقَ عليه، فكان مفتْاحه السُّكْر. ■

بخــلاء

تَمَّامِ بنِ جَعْفَرِ

كَان تَمَّامِ بنُ جَعْفَر بخيلاً على الطعامِ، مُفْرِطَ البُخْل. وكانَ يُقْبل عـلـى كـلِّ مـنْ أكَلَ خُبْزَه بكُلِّ علَّة[٣٩]، ويُطَالبه بكاًطائلةٍ[٤٠]، وحتّى ربّما استخرج عليه أنّه لاَبِنٌ، جَلاَّدُ الدمِ.

وكـان إنْ قـال له نديمٌ له: مـا فى الأرض أحَدٌ أمْشَى مِنّى، ولا على ظهرها أحدٌ أقْوى على الحُضرِ[٤١] منّى! قال: وما يمنعك منْ ذَلك، وأنتَ تأكُل أكْلَ عَشَرة؟ وهل يَحملُ الرَّجّلَ إلاَّ البَطْنُ؟ لا! حَمَدَ الله منْ يَحْمَدُكَ!

فإنْ قال: لا والله إنْ أقْدرُ أنْ أمْشيِ، لأنى أضعف الخَلْقِ عنْه، وإنّى لأُنْبَهَرُ مِنْ مَشْى ثلاثينَ خَطْوة! قـال: وكـيف تمشى وقـد

جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالا! وهل ينْطَلقُ الناسُ إلاَّ مَعَ خِفَّةَ الأكْل؟ وأىُّ بَطِينٍ

يقْدرُ على الحرَكَة؟ وإنَّ الكَظِيظَ[٤٢] ليُعْجزُ عن الرُكوع والسُّجود، فكيفَ بالمَشْيِ النَّكِير!

فإنْ شَكَا ضِرْسَه وقال: ما نمْتُ البارحَةَ مع وَجَعه وضَرَبَانه[٤٣]، قال: عجبتُ كيف اشتكيتَ وَاحداً، وكيف لم تَشْتَكِ الجميع! وكيف بقَيتْ إلى اليوم فى فيك حَاكَّة[٤٤]! وأىُّ ضِرْس يقْوَى على الدَّرْس[٤٥] والطَّحن! والله إنَّ الأرْحاء[٤٦] السُّورِيَّة لتَكِلُّ، وإنَّ الميجانَ[٤٧] الغليظ لَيُتْعبُه الدقُّ! ولقد استبطأتُ لك هذه العِلَّة! ارفُقْ، فَإن الرِّفق يُمْن، ولا تَخْرَقْ بنفسك، فَإنَّ الخُرْق شُؤْم!

وإنْ قال: لا والله، إن اشتكيتُ ضِرساً لى قَطُّ، ولا تَجلْجَلَ[٤٨] لى سنٌّ عنْ مَوْضعه منذُ عرفتُ نَفْسى، قال: يامجنونَ! لأن كثرة المَضْغَ تشُدُّ العُمُورَ[٤٩]، وتُقوِّى لأسنان، وتدْبُغُ ولأنّك تَكْنُزُ فى جوفك كنزاً لا يجد الماءُ معه مدْخلاً والعجبُ لا تتَّخمُ[٥٠]؛ لأنَّ منْ لا يشرب الماء على الخُوان لا يدْرَى مقدارَ ما أكل، ومنْ جاوزَ مقْدارَ الكفاية كان حرياً بالتُّخَمَة.

فإنْ قال: ما أنام الليلَ كلَّهُ، وقد أهلكنى الأرَقُ، قال: وتدعُك الكظَّة والنَّفْخَة والقــرْقَرَة[٥١] أن تنام؟ ولله لو لم يكن إلا العَطشُ الذى ينبِّهُ الناسَ لَمَا نمْتَ. ومَنْ شَربَ كثيرً بَالَ كثيراً. ومَنْ كان الليلَ كلَّه بين شُرْب وبَوْلٍ كيْفَ يأخُذُه النَّوم؟

فإن قال: ما هو إلاَّ أنْ أضَعَ رأْسى، فإنَّما أنَا حَجَرٌ مُلْقىً إلى الصُّبح، قال: ذلك لأنَّ الطعام يُسكِّنُ ويُخدِّر ويُحيِّر، ويبُلُّ الدِّماغ، ويبُلُّ العُروق، ويَسْتَرْخى عليه جميعُ البدن. ولو كانَ فى الحق، لكان ينبغى أن تَنَام الليلَ والنَّهارَ!

فإن قال: أصبحتُ وأنا لا أشتهى شيئًا، قال: إيَّاك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً؛ فإنَّ أكْلَ القليلِ على غيْر شَهْوة، أضرُّ من الكثير مع الشَّهْوة. قَالَ الخــوانُ[٥٢]: ويْلٌ لي مِمَّن قــال: لا أُريدُ! وبعْدُ، وكيفَ تَشْتَهى الطعامَ اليومَ، وأنتَ قَد أكلتَ بالأمْس طعامَ عَشَرة!

بخــلاء

محفوظ النقّاش

صَحبنى محفـوظٌ النَّقّاشُ من مَسْجد الجامع[٥٣] ليـلا. فلمّا صرتُ قُرَّبَ منزله ـ وكان منزله أقْرَبَ إلى مَسجدِ الجامع من منزلِي ـ سألنى أنْ أبيتَ عنده. وقال: أينَ تذهبُ فى هذا المَطَر والبرْد، ومنزلى منزلُكَ، وأنت فى ظُلْمة، وليس معك نار؟ وعندى[٥٤] لبأٌ لم يَرَ الناس مثْله، وتمرٌ ناهيكَ به جَوْدةً، لا تَصْلُحُ إلاَّ له!

فملْتُ معه، فأبطأ ساعةً. ثم جاءنى بجَام لبإٍ وطَبَق تمر.

فلمّا مَدَدْتُ قال: يا أبا عثمان، إنّه لبأٌ وغلَظُه[٥٥]! وهو الليل ورُكوده! ثم لَيْلَةُ مطرٍ ورُطوبة. وأنت رجل قد طعنتَ فى السِّنّ. ولم تزل تَشْكُو من الفالج[٥٦] طَرَفًا. ومازال الغَليلُ[٥٧] يُسرِع إليك. وأنت فى الأصْل لستَ بصَاحب عَشَاءٍ!

فإن أكلتَ اللِّبأ ولم تُبالغ، كنتَ لا آكلاً ولا تاركًا؛ وحرَّشْتَ طباعَك. ثم قَطَعتَ الأكل أشهَى ما كان إليك. وإنْ بالغتَ، بِتنا في ليلة سُوء من الاهتمام بأمرك، ولَم نُعدّ لك عَسَلا.

وإنّما قلتُ هذا الكلام لئلاَ تقول غداً: كانَ وكان! والله قد وقعتُ بين نابيْ أسَدٍ! لأنّي لو لم أجئْكَ به وقد ذكرتُه لك، قلتَ: بَخِلَ به، وبَدَا له فيه. وإن جئتُ به ولم أحَذِّرك منه، ولَم أُذَكِّرك كلَّ ماا عليكَ فيه، قلتَ: لم يُشْفِق عليَّ ولم ينْصَحْ. فقد بَرِئْتُ إليكَ من الأمرين جميعاً. وإنْ شئتَ فأكْلَةٌ وموْتَةٌ! وإن شئتَ فبعضُ الاحتمالِ ونومٌ على سلامة!

فما ضَحكْتُ قط كَضَحكي تلك الليلةَ. ولقد أكلْتُهُ جميعاً، فما هَضَمَه إلا الضّحكُ والنّشاطُ والسرورُ، فيما أظَنُّ. ولو كان معي مَنْ يفْهَمُ طيبَ ما تكلّمَ به، لأتَى عليَّ الضّحكُ، أو لقَضَى عليَّ. ولكنّ ضَحِكَ مَنْ كان وحْدَه لا يكون على شَطْرِ مُشاركة الأصحاب. ■

بخلاء

أحمد بين الخاركي

كان أحمد بن الخارَكيّ بخيلاً، وكان نَفّجا[٥٨]. وهذا أغْيَطُ ما يكون. وكان يتخّذ لكلّ جُبّة أربعةَ أزرار، لُيرىَ الناسَ أن عليه جُبّتينِ، ويشترى الأعْذاق[٥٩] والعَراجين[٦٠] والسّعَف من الكَلاَّءِ[٦١]؛ فإذا جاء الحمّالُ إلى بابه تركه ساعةً، يُوهُمُ الناس أنّ له من الأرَضِين ما يحتمل أن يكون ذَلك كلّه منها.

وكان يكترى القُدُور ثم يتحرّى أعظمَها، ويهرب من الحمالين بالكراء؛ كي يصيحوا بالباب: يشترون الدّاذيّ والسّكَرَ[٦٢]، ويحسبون الحمّالين بالكِراء! وليس فى منزله رطل دِبْس[٦٣].

وسمع قول الشاعر:

رأيتُ الخُبــزَ عــزَّ لديك حــتّى

حــسبتُ الخُبــزَ فى جــو الســحــابِ

ومـــا روّحـــتنا لتـــذبّ عنا

ولـكـن خـــفْتَ مَرْزئـةَ الذُّبـاب(٦٤)

فقـال: ولم ذَبَّ عنهم؟ ما أعلم إلاَّ أنّه شهّى إليهم الطعامَ، ونظف لهم االقصاعَ، وفرّغهم له، وسخّرهم عليه! ثم ألاَ تركها تقع فى قصاعهم، وتسقط على آنافهم وعيونهم! هو والله أهلٌ لما هو أعظمُ من هذا! كم تَرَوْن من مرّة قد أُمرت الجاريةَ أن تُلقى فى القصعةِ الذّبابةَ والذبابتين والثلاثة، حتى يتقزّز بعضهم، ويكْفىَ الله شرّه!

قال: وأمّا قوله: «رأيتُ الخبزَ عزّ لديك حتّى» قال: فإن لم أعزّ هذا الشيءَ الذى هو قوامُ أهل الأرض، وأصلُ الأقواتِ، وأميرُ الأغذية، فأىّ شيء أعزّ؟ إى والله، إنى أعزّه وأعِزّه وأعِزّه، مدى النّفَسِ، ما حملتْ عينى المَاءَ(٦٥). ■

[من «كتاب البخلاء»]

الحيَــوان

ذِكْر اختلاف طبائع الحيوان وما يعتريها من الأخلاق

الـذئـب لا يطمع فيه صاحبهُ، فإذا دَمِيَ وثب عليه صاحبهُ فأكلَه، وإذا عضَّ الذِّئبُ شاةً فأفلتت منه بضربٍ من الضروب، فإنَّ عـادة الغنم إذا وجـدَتْ ريحَ الدمِ أن تَشمَّ مـوضع أنيـاب الذئـب، وليس عندها عند ذلك إلاَّ أن ينضَّم بعضها إلى بعض؛ ولذلك قال جريرٌ لعَمر بن لجأ التَّيميّ:

فـلا يضـغـمَنَّ الليْثُ تيـماً بِغرِّةٍ
وتيـمٌ يَشَمُّونَ الـفَريـسَ المُنَيَّبا[١]

فذكر أنهم كالغنمِ في العجز والجُبن. وإذا دَمِيَ الحمارُ ألقى نفسه إلى الأرض وامتنع ممن يريده بالعضّ وبكلٍّ ما قدر عليه، غير أنه لا ينهض ولا يبرحُ مكانَه. وإذا أصاب الأسدَ خَدْش أو شَحْطة[٢] بعد أن يَدْمى مكانهَ فإنَّ ذبّان الأسد تلحُّ عليـه، ولا تُقْلع عنه أبداً حتى تقتله.

وللأسود دِبّانٌ على حدة، وكذلك الكلاب، وكذلك الحمير، وكذلك الإبل، وكذلك الناس.

وإذا دَمِيَ الإنسانُ وشَمَّ الذئبُ منه ريحَ الدّم فما أقَلَّ من ينْجُو منه وإن كان أشدَ الناس بدنًا وقلبًا، وأتمَّهم سلاحا، وأثقفهم ثقافة.

وإذا دَمِيَ البَبْر استكلب فخافه كلُّ شيء كان يسالمُه من كبار السِّباع كالأسود والنمور، والبر على خلاف جميع ما حكينا.

وإذا أصاب الحية خدشٌ فإنَّ الذرّ يطالبه أشدّ الطلب، فلا يكاد ينجو، ولا يعرف ذلك إلاّ في الفرْط.

وإذا عضَّ الإنسانَ الكلبُ فإنَّ الفأر يطالبه ليبولَ عليه، وفيه هَلَكَتُهُ، فهو يحتال له بكلِّ حيلة.

وربما أغَدَّ البعير فلا يعرف ذلك الجَمَّالُ حتى يرى الذِّبّانَ يطالبه.

وإذا وضعت الذِّئبةُ جَرْوَها فإنه يكون حينئذ ملتزقَ الأعضاء أمْعَطَ كأنه قطعة لحم، وتعلم الذِّئبة أن الذرّ يطالبه، فلا تزال رافعةً له بيديها، ومحوِّلةً له من مكانٍ إلى مكان، حتى تفرج الأعضاء، ويشتدّ اللحم.

وإذا وضعت الهرّة جروها فإنْ طرَحُوا لها لحماً من ساعتها أو رُوبة[٣] أو بعض ما يشبه ذلك فأكلته، لم تكد تأكل أجراءها، لأن الهرة يعتريها عند ذلك جُوعٌ وجُنون وخفّة.

والأجناس التي تحدث لها قوّة على غير سبب يعرف في تقدير الرأى منها الذئبُ الضعيف الواثبُ على الذّئب القوىّ إذا رأى عليه دما، والهِرّةُ إذا سفدها الهرُّ، فإنها عند ذلك تشدُّ عليه وهي واثقةٌ بَاستخذائه لها، وفضْل قوّتها عليه، والجرذ إذا خصى فإنّه يأكل الجرذان أكلا ذريعا ولا يقوم له شَيءٌ منها.

فأمّا الفيل والكركدّن والجمل، عند الاغتلام وطلَب الضّراب، فإنها وإن تركت الشُّرْبَ والأكل الأيامَ الكثيرة فإنّه لا يقوم لشيءٍ منها شيء من ذلك الجنس وإن كان قوياً شاباً آكلا شاربا.

وأما الغيرانُ والغضبان والسّكران والمُعاين للحرب، فهم يختلفون في ذلك على عللٍ قد ذكرْناها في القول في فضيلة.

الإنسان على الجانّ. فإنْ أردتَه فالتمسْهُ هناك. فإنّ إعادةَ الأحاديث الطول والكلامَ الكثيرَ مما يُهجَر في السّماع، ويهجّن الكتب. ■

[من «**كتاب الحيوان**»]

ممّا أشبَهَ فيه الحمَامُ النّاسَ

ومّما أشبَهَ فيه الحمامُ الناسَ، أنّ ساعات الحضْن أكثرُها على الأنثى، وإنّما يحضُن الذّكَرَ في صدْر النهار حَضْنًا يسيرا، والأنثى كالمرأة التي تكفُل الصبيّ فتقَطّمه وتمرّضه(٤)، وتتعهّده بالتمهيد والتّحريكَ. حتّى إذا ذهب الحضْنُ وانصرمَ وقَتُه، وصارَ البيضُ فراخا كالعيال في البيت، يحتاجون إلى الطّعام والشراب، صار أكثرُ ساعات الزّقّ على الذّكر كما كان أكثرُ ساعاتِ الحضْن على الأنثى.

ومّما أشبه فيه الحمامُ النّاسَ ما قال مثنّى بنُ زُهير (وهو إمام النّاس في البصرة) بالحمام وكان جيّد الفراسة، حاذقا بالعلاج، عارفًا بتدبير الخارجيّ إذا ظهَرت فيه مَخيلةُ الخير ــ واسم الخارجيّ عندهم: المجهول ــ وعالمًا بتدبير العريق المنسوب إذا ظَهَرَتْ فيه

علاماتُ الفسولة وسوء الهداية. وقد يمكن أن يَخْلُفَ ابنُ قُرَشيَّيْنَ وينْدُب ابن خُوزىٍّ من نبطيَّةٍ. وإنما فضّلنا نتاجَ العِلْيةِ على نتاج السَّفلة لأنّ نتاجَ النَّجابة فيهم أكثَرُ، والسّقوط فى أولاَد السفلَة أعمُّ. فليس بواجبٍ أن يكون السفلةُ لا تَلد إلاّ السفلةَ والعِلْية لا تَلد إلاّ العِليةَ. وقد يلدِ المَجنونُ العاقِلَ، والسَخىٌّ البَخيلَ، والجميلُ القَبيحَ.

وقد زعم الأصمعىُّ أنّ رجلاً من العرب قال لصاحب له: إذا تَزَوَّجْتَ امرأةً من العَرَب فانظُرْ إلى أخوالها، وأعمامها، وإخوتها، فإنها لا تخطىء الشبهَ بواحدٍ منهم! وإنْ كان هذا الموصى والحكيم، جعل ذلك حُكما عاماً فقد أسرفَ فى القول، وإن كان ذهبَ إلى التّخويفِ والزّجْرِ والترهيب، كى يختارَ لنفسه، ولأنّ المَتخيِّر أكثرُ نجابةً فقد أحسن.

وقال مثّنى بنُ زهير: لم أر شيئاً قَطٌّ فى رجلٍ وامرأةٍ إلاّ وقد رأيتُ مثلَه فى الذّكر والأنثى من الحمام: رأيتُ حمامةً لا تريد إلاّ ذكرَها، كالمرأة لا تريدُ إلاّ زوجها وسيِّدها، ورأيتُ حمامةً لا تمنَع شيئاً من الذُّكورة، ورأيتُ امرأةً لاتمنع يَدَ لامسٍ، ورأيت الحمامةَ لا تزِيف إلا بَعْدَ طَرْدٍ شديد وشدة طلبٍ، ورأيتُها تزيفَ لأولِ ذَكر

يُريدُها ساعةَ يقصدُ إليها، ورأَيتُ من النساء كذلك، ورأيتُ حمامةً لهـا زوج وهى تمكّن ذكـراً آخـرَ لا تَعْدُوهُ، ورأيتُ مـثلَ ذلك من النساء، ورأيتـها تزيفُ لغير ذكرها وذكرُها يراها، ورأيتـها لا تفعل ذلك إلاّ وذكَرها يطيرُ أو يحضُنُ، ورأيت الحمامةَ تقمطُ الحمام الذكور، ورأيت الحمامةَ تقمطُ الحمامة، ورأيت أنثى كانت لى لا تقمط إلاّ الإناث، ورأيت أخرى تقمط الإناث فقط، ولاتدَعُ أنثى تقمطها.

قـال: ورأيت ذكـراً يقـمُط الذُّكـورة وتقـمطه، ورأيت ذَكـراً يقـمطهـا ولا يدعهـا تقـمطه، ورأيـتُ أنثى تزيفُ للذُّكـورِة ولا تدع شيئاً منها يقمطها.

قال: ورأيتُ هذه الأصنافَ كلّها فى السّحّاقات من المذكّرات والمؤنثات، وفى الرّجال الحَلَقيّين(٥) واللُّوطّيين. وفى الرجَال من لا يريد النساء، وفى النساء من لا يريد الرجال.

قـال: وامتنعتْ علىّ خَصلةٌ، فوالله لقـد رأيتُ من النسـاء من تزْنى أبداً وتساحق أبداً ولا تتزوج أبداً، ومن الرجال من يلوطُ أبداً، ويزنى أبداً، ومن الرجـال من يلوطُ أبداً، ويزنى أبداً ولا يتـزوّج،

ورأيتُ حماماً ذكراً يقمط ما لقي ولا يزاوِّج، ورأيتُ حماماً ذكراً يقمط ما لقيى ولاا يزاوِج. ورأيتُ حمامةَ تمكّن كلّ حمامٍ أرادَها منْ ذكرٍ وأنثى، وتقمطُ الذكورةَ والإناثَ، ولا تزاوِج. ورأيتها تزاوج ولا تبيض، وتَبيضُ فيفسدُ بيضُهاَ؛ كالمرأة تتزوَّج وهي عاقر، وكالمرأة تلد وتكون خرقاء ورْهاء. ويعرض لها الغلظةَ والعقوق للأولادَ، كما يعترى ذلك العُقاب.

وأمّا أنَا فقد رأيتُ الجفاء للأولاد شائعاً في اللّواتي حَمَلَن من الحرام. ولربَّماَ ولدت من زَوجها، فيكون عطفها وتحنُّنها كتحنن العفيفاتِ الستيرات، فما هو إلاّ أن تزنىَ أو تَقْحَب فكأنّ الله لم يضْرِب بينهاَ وبينَ ذلك الولدِ بشبكة رَحِمٍ، وكأنَها لم تَلِدْهُ.

قال مثنّى بنُ زَهير: ورأيتُ ذكراً له أن أنثيان وقد باضتَاَ منه، وهو يحضُن مع هذه ومع تلك، ورأيت أنثَى تبيض بيضة، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاث بيضات.

وزعم أنّه إنّما جزَم بذلك فيها ولم يظنه بالذّكر، لأنّها قد كانت قبل ذلك عند ذكرٍ آخر، وكانت تبيض كذلك.

ورأيتُ أنَا حمامةً في المنزِلِ لم يعرِض لها ذكَرٌ إلا اشتدّت نحوهُ بحدَّةٍ ونَزَق(٦) وتسرُّعٍ، حتّى تنقر أينَ صادفتْ منهُ، حتى

يصدُّ عنها كالهارب منها. وكان زوجُها جميلا فى العَين رائعًا، وكان لها فى المنزل بنون وبنو بنين وبنات وبنات بنات، وكان فى العَينِ كأنّه أشبُّ من جميعهنّ. وقد بلَغ من حظوتهِ أنى قلّما رأيتُه أرادَ واحدةً من عرْض تلك الإناثَ فامتنعتْ عليه، وقد كُن يمتنعن من غيره. فبينماَ أنَا ذاتَ يومٍ جالسٌ بحيث أراهنّ إذ رأيتُ تلك الأنثي قد زافتْ لبعض بنيها! فقلت لخادمي: ما الذى غيَّرها عن ذلك الخلق الكريم؟ فقال: إنى رَحَّلْتُ زوجَها من القاطول[7] فذهب، ولهذا شهر. فقلت: هذا عذر!

قال مثّنى بن زهير: وقد رأيت الحمامة تزاوج هذا الحمام، ثم تتحول منه إلى آخر، ورأيت ذَكراً فَعَلَ مثل ذلك فى الإناث. ورأيت الذَّكَرَ كثيرَ النَّسل قويًا على القمْط، ثمّ يصفِي كما يُصْفى الرَّجلُ إذا أكثر من النسْل والجماع[8].

ثمّ عدّد مُثّنى أبوابًا غيرَ ما حفِظتُ ممّا يُصَابُ مثلُه فى الناس. ■

[من «كتاب الحيوان»]

مسألة الهدهد

وإذْ قد ذكرْنَا بَعض الكلامِ، والمسائلَ فى بعْض الكلام، فسنذكر شأنَ الهدهُد والمسألة فى ذلك. قال الله عزَ وجَلّ: ﴿وتَفَقَّدَ الطيْرَ فقَالَ مَالىَ لا أَرَى الهدْهدَ أمْ كانَ منَ الغَائبينَ، لأعذبنَّه عذابًا شديدًا أوْ لأذْبحَنَّهُ أوْ ليأتينى بسُلْطَان مُبينٍ﴾، ثم قال: ﴿فمَكثَ غيْرَ بَعيدٍ﴾ يعنى الهدَهُد. فقال لسليمان المتوعد له ـ والعقوبة لا تكون إلاّ على المعصية لبشرىٍّ آدمىّ لم تكن عقوبته الذّبح، فدلّ ذلك على أنّ المعصية إنما كانت له، ولا تكون االمعصيةُ لله إلاّ مّمن يعرف الله، أو مّمن كان يمكنه أن يعرفَ الله تعالى فَتَرَكَ ما يجب عليه من المعرفة ـ وفى قوله لسليمان: ﴿أحَطْتَ بمَا لمْ تحط به وجئْتَكَ منْ سبأٍ بنبأٍ يقين. إنِّى وجدْتُ امْرَأَةً تملْكُهُمْ وأوتِيَتْ منْ كُلِّ شىْءٍ ولَهَا عَرْشٌ عظيمٌ﴾. ثمّ قال

بعدَ أنْ عرفَ فصْل ما بين الملوكِ والسُّوقة، وما بين النِّساء والرجال، وعرف عظَم عرشها، وكثرةَ ما أوتيَت في ملكها، قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يسجدُونَ للشّمْسِ منْ دُون الله وزيّن لهُمُ الشّيْطانُ أعْمالَهُمْ فَصَدّهمْ عنَ السبيل فهمْ لا يَهْتَدُونَ﴾، فَعَرَفَ السُّجود للشمس وأنْكَرَ المعاصي. ثمْ قال: ﴿ألاَّ يسجدُوا لله الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السمواتِ والأرضِ ويعْلمُ مَا يخفُونَ ومَا يُعْلنونَ﴾، ويتعجّب منِ سجودهم لغير الله. ثمّ علم أن الله يعلم غيبَ السموات والأرض، ويعلَم السرَّ والعلانية. ثمّ قال: ﴿الله لا إلهَ إلا هُو ربُّ العَرْشِ العَظيم﴾، وهذا يدلُّ على أنّهُ أعلَمُ من ناسٍ كثيرٍ من المميزين المستدلّين الناظرينِ.

قال سليمان: ﴿سننْظرُ أصَدَقْتَ أمْ كنْتَ منَ الكَاذبين﴾ ثمّ قال: ﴿اذهبْ بكتَابي هذا فألْقهْ إلَيْهِمَ ثمّ تولّ عنْهُمْ فانْظرْ مَاذَا يَرْجعُونَ. قالتَ يَا أيهَا الملأُ إنّي أُلقِيَ إليّ كتابٌ كريمٌ. إنّهُ منْ سُليمْانَ وإنّه بسمِ الله الرحمنِ الرَحيمِ. ألاّ تَعْلُوا عَلَيّ وأْتوني مُسْلمين﴾ ﴿فَلَمّا جاءَ سُليمانَ قالَ أتمدُّوني بمالٍ فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم بلْ أنتم بهَديتّكُمْ تَفْرحُونَ﴾ وذلك أنها قالت: ﴿إنَّ المُلوكَ إذا دخلُوا قرْيَةً أفسدُوها وجَعَلوا أعزّةَ أهْلِهَا أذلّة وكذلك

يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾، ثم قال سليمان للهدهد: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ وقال: ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾. فطعن في جميع ذلك طاعنون، فقال بعضهم: قد ثبت أن الهدهد يحتمل العقاب والعتاب، والتكليف والثواب، والولاية[٩]، ودخول الجنة بالطاعة، ودخول النار بالمعصية؛ لأن المعرفة توجب الأمر والنهي، والأمر والنهي يوجبان الطاعة والمعصية، والطاعة والمعصية يوجبان الولاية والعداوة، فينبغي للهدهد أن يكون فيها العدو والولي، والكافر والمسلم، والزنديق والدهري[١٠]. وإذا كان حكم الجنس حكما واحدا لزم الجميع ذلك. وإن كان الهدهد لا يبلغ عند جميع الناس في المعرفة مبلغ الذرة، والنملة، والقملة، والفيلم، والقرد، والخنزير،

والحمام ـ وجميع هذه الأُمَم، تُقدِّمُهَا عليه في المعرفة ـ فينبغي أن تكونَ هذه الأصنافُ المتقدِّمَة عليه، في عقول هذه الأمّة والأنبياء.

وقد رأينا العلماء يتعجّبون من خرافات العَرَبَ والأعراب في الجاهليّة ومن قولهم في الدِّيك والغراب، ويتعجّبون من الرِّواية في طوق الحمام؛ فإنّ الحمام كان رائد نوح على نبينا وعليه السلام.

وهذا القول الذى تؤمنون به فى الهدهد، من هذا النوع.

قلنا: إنّ الله تعالى لم يقُل: وتَفَقَّدَ الطّير فقال ما لى لا أرى هدهداً من عُرْض الهداهد، فلم يوقع قولَه على الهداهد جُملة، ولا على واحدٍ منها غير مقصودٍ إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامّة، ولكنّهُ قال: ﴿ وتَفَقّدَ الطّيْرَ فَقَالَ مالى لاَ أرَى الهدْهُدَ﴾ فأدخلَ فى الاسم الألفَ واللاّم، فجعله معرّفة فدلّ بذلك القصد علىَ أنه ذلك الهدهدُ بعينه. وكذلك غرابُ نوحٍ، وكذلك حمارُ عُزَير، وكذلك ذئب أهبانَ بنِ أوس؛ فقد كان لله فيه وفيها تدبيرٌ، وليجعلَ ذَلِكَ آية لأنبيائه، وبرهاناً لرسله.

ولا يستطيع أعقلُ الناس أن يعملَ عملِ أجرأ النَّاس، كما لا يستطيع أجرأُ الناس أن يعملَ أعمال أعقلِ الناس. فبأعمال المجانينِ

والعُقلاء عرَفنا مقدارهما من صحّة أذهانهما وفسادها، وباختلاف أعمالِ الأَطفالِ والكهول عرفْنا مقدارَهما فى الضَعْف والقَوّة، وفى الجهلِ والمعرفة. وبمثل ذلك فصلَنا بين الجماد والحيوان، والعَالِمِ وأعْلمَ منه، والجاهلِ وأجْهلَ منهُ. ولو كان عند السباعِ والبهائمِ ما عند الحكماء والأدباء، والوزراءِ والخلفاء والأُممِ والأنبياء، لأثمرت تلك العقول، باضطرار، إثمارَ تلك العقول. ■

[من «كتاب الحيوان»]

فى وفاء الكلب

وأنشد أبو الحسن بن خالويه عن أبى عُبيدة لبعض الشعراء:

يُعَرِّدُ عنهُ جارُهُ وشقيقُهُ

وينبش عنه كلْبُهُ وهو ضاربُهْ

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأنَّ رجلاً خرج إلَى الجبَّان ينتظر رِكابَه فأتبعه كلبٌ كان له، فضرب الكلبَ وطردَه، وكرِه أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلبُ إلاَّ أن يذهبَ معه، فلما صار إلى الموضع الذى يريد فيه الانتظار، ربضَ الكلبُ قريباً منه، فبينما هو كذلك إذ أتاهُ أعداءٌ لهُ يطلبونه بطائلةٍ لهم عنده، وكان معه جار لَهُ وأخوه دِنْياً، فأسلماه وهربا عنه، فجرح جراحاتٍ ورُمى به فى بئرٍ غيرِ بعيدة القعر، ثم حَثَوْا عليه من التراب حتى غطّىَ رأسَه ثم

كُمِّمَ فوقَ رأسِه منه، والكلبُ في ذلك يزجُم ويهِرُّ، فلمَّا انصرفوا أتى رأس البئر؛ فمازال يَعوى وينبش عنه ويحثُو الترَابَ بيده ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسَه، فتنفَّس ورُدَّتْ إليه الروحُ وقد كان يموتُ ولم يبق منه إلاَّ حُشاشة، فبينا هو كذلك إذْ مرّ ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنَّه يحفِر عن قبْر، فنظروا فإذا هم بالرجُلِ في تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حيّاً، وحملوه حتَّى أدُّوه إلى أهله، فزعم أنّ ذلك الموضعَ يُدْعى ببئر الكلب. وهو مُتيامِنٍ عن النجف.

وهذا االعملُ يدلَ عَلَى وَفَاءٍ طبيعىّ وإلْفٍ غريزى ومحاماةٍ شديدة، وعلى معرفةٍ وصبرٍ، وعلى كرم وشكر، وعلى غناءٍ عجيب ومنفعةٍ تفوق االمنافع؛ لأنّ ذلك كلُّه كان من غير تكلّف ولاتصنُّعٍ.

والكلب يعرف وجهَ ربِّه من وجه عبده أمَتَه، ووجهَ الزائر. حتَّى ربَّما غاب صاحب الدار حوْلاً مجرَّماً، فإذا أبصرَه قادماً اعتراه من الفرَح والبصبصة، والعُواء الذى يدلُّ على السرور، وعلى شدَّة الحنين، ما لا يكون فيه شيء فوقه.

وخبَّرني صديقٌ لي قال: كان عندنا جروُ كلب، وكان لي خادمٌ لهجٌ بتقريبه، مولعٌ بالإحسان إليه، كثيرُ المعاينة له، فغاب عن البَصرة أشهراً، فقلت لبعضِ منْ عِنْدى: أتظنون أنّ فلانا (يعنى الكلب) يُثبتَ اليومَ صورةَ فلان (يعنى خادمَه الغائب) وقد فارقه وهو جرو، وقد صارِ كلباً يشغَر ببوله؟ قالوا: ما نشكٌّ أنّه قد نسى صورتَه وجميعَ برٍّه كان به. قال: فبينما أنا جالسٌ في الدارِ إذ سمعت من قِبَلِ بابِ الدار نُباحَه، فلم أرَ شكْلَ نباحه مِن التأنُّبَ وَالتعثيثَ[١١] والتوعّد، ورأَيت فيه بَصبصةَ السُّرور، وحَنينَ الإلْف. ثمَّ لِم ألبَث أن رأيتُ الخادمَ طالعًا علينا، وإنَّ الكلبَ ليلتَفٌّ على ساقيه، ويرتفعِ إلى فخذيه، وينظُر في وجهه، ويصيح صياحًا يستبين فيه الفرحُ. ولقد بلَغ من إفراط سُرورِه أنِّى ظَننتُ أنه عُرض. ثمَّ كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة، أوْ يمضى إلى بغدادَ ثم يرجع إلى العسكر[١٢] بعد أيَّام، فأعرف بذلك الضَّرْب من البصبصة، وبذلك النوع من النُّباح، أنَّ الخادمَ قدِم. حتّى قلتُ لبعض من عندى: ينبغى أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلبِ.

وزعم لى أنّه ربّما أُلْقِيَ لهذا الجرو إلى أن صار كلبا تامّاً، بعضُ الطَعام فيأكل منه ما أكل، ثم يَمضى بالباقى فيخبّؤُه. وربّما أُلقِيَ إليه الشيءُ وهو شبْعان فيحتمله، حتّى يأتىَ به بعضَ المخابىء فيضعه هناك، حتّى إذا جاعِ رجَع إليه فأكله. ■

[من «**كتاب الحيوان**»]

طباع القرد

والقـرد يَضْحكُ ويَطْرَب، ويَقْعى ويَحكى، ويتناولُ الطعامَ بيديه ويضـعه فى فـيه، ولهُ أصـابعُ وأظفـار، ويَنقىّ الجـوز، ويأنس الأُنْسَ الشـدّيد، ويُلقَّنُ بالتلقين الكثـيـر، وإذا سـقَط فى الماء غـرق ولم يسبَحْ؛ كـالإنسـان قبل أنْ يتعلمَ السبَّاحة. فلم تجـد الناسُ للذى اعترى القِرْدَ من ذلك ـ دونَ جميعِ الحيوان عِلّةً ـ إلا هذه المَعانى التى ذكرتها، من مناسبَة الإنسان من قِبَلَها.

ويُحَكى عنه من شـدَّة الزواج، والغَيـرةِ على الأزواجِ، مـا لا يحكى مـثله إلا عن الإنسـان؛ لأنَّ الخنزيرَ يَغَارَ، وكـذلك الجـملُ والفَرَسُ، إلاّ أنها لا تزاوج. والحمارُ يُغَارُ ويحمى عانَتَهُ الدَّهر كُلَّهُ، ويضرِبُ فيـها كـضربه لو أصـابَ أتاناً من غيرها. وأجنَاس الحمـام تزاوج ولا تَغار.

واجتمعَ فى القرد الزّواج والغَيرة، وهما خَصلتان كريمتان، واجتماعهما من مفاخرِ الإنسان على سائرَ الحيوان. ونحن لم نَرَوجْهَ شيءٍ غَيرِ الإنسَان أَشبَهَ صورةً وشَبَهاً، على ما فيه من الاختلاف، ولا أَشبَهَ فماً ووجْهاً بالإنسان، من القرْد. ورُبّما رأيْنا وجهَ بَعْضِ الحمر إذا كان ذا خطْمٍ، فلا نَجِدُ بيّنهُ وبين القِرْدِ إلاّ اليسيرَ■

[من «كتاب الحيوان»]

طرائف من الأخبار فى الفيل

الفيلُ، المعروفُ بهذا الاسم. ويقال رجلٌ فيلٌ إذا كان فى رأيه فيَالة؛ والفيَالة: الخطأ والفساد. ويسمُّون أيضاً الرَّجلَ بفيل، منهم فيلٌ مولى زياد وحاجبُه. وفى أنهار الفرات بالبصرة نهر يقال له فيل بانان، وموضع آخر يقال له فِيلان(١٣).

وقد يعرض بقدم الإنسان ورَم جاسٍ حتَّى تعظم له قدمُه وساقُه، وصاحبه لا يبرأ منه، ويسمى ذلك الورمُ داءَ الفيل.

ويسمَّى الرجُل بدَغْفَلٍ، وهو ولد الفيل(١٤)، ولا يسمُّون بزَنْدبيل. وبعض العرب يقول للذَّكر من الفيلة فيل وللأنثى فِيلة، كما يقولون أسد وأسدة، وذئب وذئبة، ولا يقولون مثل ذلك فى ثعلب وضبع، وأمورٍ غير ذلك، إلاّ أن يكون اسماً لإنسان.

وذكَرَ بعضُ الفيّالين أنّ الفيَلة تضعُ لسبع سنين ولَداً مستوى الأسنان، وأنهم يرصدون ذلك الوقتَ من الوحشية منها،ويحتالون فى أخْذ الولد، وأن ذلك الولدَ يعيش فى أيديهم ما بين الثمانين سنةً إلى المائة، وأنّ عُمر الوحشية أطولُ، وأنّ كلَّ شيءٍ منها اليومَ بالعَسْكر إناث، وأنّ الموتَ بالعراق إلى الذُّكورة أسرعُ، وأنّ نابَه لا يطول عندنا، وأنهم يَعْملون من جلودها الترسَةَ(١٥) أجودَ من جلود الجواميس، ومن الخيزُران، ومن الدّرق والحَجَف التى تتخذ من جلود الإبل(١٦)، ومن هذه المعقَّبة المطليَّة، ومن جميع ما يؤلف من أنواع الخشب والجلود التى قد أطيلَ إنقاعها فى اللبن، ومن كلِّ تبّتىٍّ وصينىْ.

وذكر أن لها مُروجاً، وأن المروج أصلحُ لها من القرى، ومواضعَّها من الوحْش أصلحُ لها من المُروج.

وذكر رسولٌ لى إلى سائسها أنه قد اتّبعها إلى دجلة، وأنّ بعض الغوغاء صاح بها: ياحجّام بابَك! وهذا الكلام اليومَ ظاهرٌ على ألسنة الجهّال، وأن فيلاً منها ركلَه برجله رَكْلةً صكَّ بها الحائط حتى خيف عليه منهَا، وأنه رأى منها الإنكارَ لذلك القولَ، وأنّ الفيّالَ كانَ يحثُّها على الانتقام لمّا صاحَ بها.

وإذا عـرفَ الكلبُ اسـمـه، وكـذلك السنّور، وكـذلك الشّاة والفرس، والطفل والمجنون المصْمَت الجنون، وعرفت الناقةُ فصْلَ ما بين حَلٍّ وجاه، وعَرَف الحمـارُ الصوتَ الذى يُلتَمَسُ به وقوفُه، والذى يلتمس به سيرُه، وعرف الكلبُ مخاطبةَ الكلاَّب، والبْبغاءُ مناغاةَ المكلِّم له، فجائزٌ أن يكون الفيلُ بفضْلِ فطنته أنْ يفهم أضعافَ ذلك. فإذا أمره بضرب إنسَان عند ضروبٍ من الكلام استعاد ذلك وأدامَه، لم ينكر أن يعرفَه على طول الترداد.

قالوا: وإذا احتملت المرأة شيئا من نَجْوِ الفيل بعد أن يُخْلَطَ به شيءٌ من عسَل فإنها لا تَحبَل أبداً.

قالوا: ومما يؤكـد ذلك أنك لو علّقتَ على شجرةٍ من نجْوه شيئاً، أن تلك الشجرةَ لا تحمِل فى تلك السنة.

قالوا: وزوانى الهند يفعلن ذلك استبقاءً للطّراء وللشّباب، ولأنها إذا كانت موقوفةً على جميع الأجناس مِن الرِّجال كانت أسرَعَ إلى الحَبَل لأنها لا تعدَم موافقاً لطبعها. وإذا حملت ووضعت مراراً بطلت. ■

[من «**كتاب الحيوان**»]

البَيَــان

قــال بعضُ جهابذة الألفاظ ونُقّادِ المعانى: المعانى القائمة فى صدور الناس المتَصوّرة فى أذهانهم، والمتخلِّجة فى نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فِكَرهم، مستورةٌ خفيّة، وبعيدةَ وحشية، ومحجوبةٌ مكنونة، وموجودةٌ فى معنًى معدومةٍ، لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنَى شريكه والمعاونِ له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره. وإنما يحيى تلك المعانىَ ذكرهم لها، وإخبارُهم عنها، واستعمالُهم إياها. وهذه الخصالُ هى التى تقرّبها من الفهم، وتُجليها للعقْل، وتجعل الخفىّ منها ظاهراً، والغائبَ شاهداً، والبعيدَ قريبا. وهى التى تلخّص الملتبس، وتحلّ المنعقد، وتجعل المهمَلَ مقيداً، والمقّيد مطلقاً، والمجهولَ معروفاً، والوحشىّ مألوفاً، والغُفْل

موسوماً، والموسومَ معلوماً. وعلى قَدْرِ وُضوح الدَّلالة وصوابِ الإشارة، وحسن الاختصار، ودِقّةِ المَدْخَلَ، يكون إظهارُ المعنى. وكلّما كانتَ الدّلالة أوضحَ وأفْصح، وكانت الإشارةُ أبْينَ وأنْوَر، كانت أنفعَ وأنْجع. والدلالة الظاهرةُ على المعنى الخفىِّ هو البيانُ الذى سمَعْتَ الله عزّ وجلّ يمدحه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه. بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم.

والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيء كشفَ لك قناعَ المعنى، وهتَكَ الحجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِىَ السّامعُ إلى حقيقَته، ويَهجمُ على محصوله كائناً ما كان ذلك البيانُ، ومِن أىِّ جنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التى إليها يجرى القائل والسّامع، إنّما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأىِّ شىءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ فى ذلك الموضع.

ثم اعلم ــ حفظَكَ الله ــ أنّ حُكْمَ المعانى خلافُ حُكمِ الألفاظ؛ لأنّ المعانى مبسوطةٌ إلى غير غاية، وممتدّةٌ إلى غير نهاية، وأسماءَ المعانى مقصورةٌ معدودة، ومحصّلةٌ محدودة.

وجميعُ أصنافِ الدّلالاتِ على المعانى من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولاَ تزِيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم

الـعَقْد[1]، ثمّ الخَطّ، ثمّ الحالُ التى تسمّى نِصْبة. والنِّصْبَة هى الحال الدّالةُ، التى تقوم مقامَ تلك الأُصناف، ولا تقصرُ عن تلك الدّلالات، ولكل واحدٍ من هذه الخمسة صورة بائنةٌ من صورةِ صاحبتها، وحلية مخالفةٌ لحلية أختها؛ وهى التى تكشف لك عن أعيان المَعانى فى الجملة، ثمّ عن حقائقها فى التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصّها وعامّها، وعن طبقاتها فى السارّ والضارّ، وعمّا يكون منها لغواً[2] بَهْرَجاً، وساقطا مُطّرَحاً.

وقد قلنا فى الدّلالة باللفظ. فأمّا الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمَنْكب، إذا تباعَدَ الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدّد رافعُ السّيف والسّوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً.

والإشارة واللفظ شريكان، ونعْمَ العونُ هى له، ونعم الترجمان[3] هى عنه. وما أكثرَ ما تنوب عن اللفظ، وما تُغْنى عن الخطّ. وبعدُ فهل تَعدو الإشارةُ أن تكون ذاتَ صورةٍ معروفةٍ، وحلْية موصوفة، على إختلافها فى طبقاتها ودلالاتها. وفى الإشارة بالطرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفَقٌ كبير ومعونة حاضرة، فى أمور يسترُها بعض الناسِ من بعض، ويُخْفونها من

الجليسِ وغيرِ الجليس. ولولا الإشارةُ لم يتفاهم الناسُ مَعنَى خاصّ الخاصّ، ولجَهلوا هذا البـاب البَتّة. ولولا أن تفـسيرَ هذه الكلمـة يَدخل فى باب صناعة الكلام لفسَّرتها لكم. وقد قال الشاعر فى دلالات الإشارة:

أشـارتْ بطَرْفِ العين خِيـفـةَ أهلِهـا
إشارةَ مـذعـورٍ ولـم تـتـكلَّم

فـأيقنْتُ أنّ الطَّرْفَ قـد قـال مرْحبًا
وأهلاً وسـهـلاً بالحـبـيبِ المتـيَّم

والصوتُ هو آلةُ اللفظ، والجوهرُ الذى يَقوم به التـقطيع، وبه يُوجَدَ التأليفَ. ولن تكونَ حركات اللسان لفْظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثـورًا إلاّ بظهـور الصـوت، ولا تكون الحـروف كـلامًا إلا بالتقطيع والتأليف. وحُسْنُ الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذى يكون مع الإشارة من الدَّلّ والشّكْل(٤) والتقتُّل والتثنّى(٥)، واستدعاء الشّهوة، وغير ذلك من الأمور.

قد قُلْنا فى الدّلالة بالإشارة. فأمّا الخطُّ، فـمـمـا ذكـرَ الله عزّ وجلّ فى كتابه من فضيلة الخَطّ والإنعامِ بمنافع الكتـاب، قولُه

لنبيِّه عليه السلام: ﴿اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ. الذى علَّمَ بالقَلَمَ. علَّمَ الإنْسانَ مَا لمْ يَعْلَمَ﴾. وأقْسم به فى كتابه المُنْزَل، على نبيِّه المُرسَل، حيث قال: ﴿ن. والقَلَمِ ومَا يَسطُرُون﴾، ولذلك قالوا: القَلَمُ أحَدُ اللسانين.

كما قالوا: قلّة العِيال أحَدُ اليَسارَين. وقالوا: القلمُ أبقى أثراً، وَاللسانَ أكثرُ هذراً.

وأمّا القَول فى العقْد، وهو الحسابُ دونَ اللّفظ والخطّ، فالدّليلُ على فضيلته، وعظَم قَدْر الانتفاع به، قولُ الله عزَّ وجلِ: ﴿فالقُ الإصْبَاحِ وجَاعلُ الليلِ سَكَنًا والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسباناً ذَلِك تَقْديرُ العَزيزِ العَليم﴾. وقال جلّ وتقدَّس: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ. خَلَقَ الإنسانَ عَلّمَهُ البَيَانَ. الشمْسُ والقَمَرُ بحُسْبَان﴾. وقال جلّ وعزَّ: ﴿هُوَ الذى جَعَلَ الشمْس ضياءً والقَمَرَ نُوراً وقدَّرهُ مَنَازِلَ لتَعْلَموا عَدَدَ السنينَ وَالحسَابَ مَا خَلَقَ الله ذَلكَ إلاّ بالحَقِّ﴾. وقال: ﴿وجَعَلْنا الليْلَ والنَهَارَ آيَتَيْن فَمَحَوْنَا آيَةَ الليْلِ وجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبْصِرَةً لتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ ربِّكُمْ ولتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحسَاب﴾.

والحسابُ يشتمل على معانٍ كثيرةٍ ومنافعَ جليلة، ولولا معرفةُ العِبَاد بمعنى الحساب في الدنيا لَمَا فهِموا عن الله عزّ وجلّ معنَى الحساب في الآخرة. وفي عدمِ اللفْظِ وفساد الخطّ والجهلِ بالعقد فَسادُ جُلِّ النِّعَم، وفَقْدانُ جُمهور المَنافع، واختلالُ كلِّ ما جعله الله عزّ وجلّ لنا قواماً، ومَصْلحةً ونظاماً.

وأما النِّصْبة فهي الحالُ الناطقة بغير اللّفظ، والمشيرةُ بغير اليد. وذلك ظاهرٌ في خلْق السّموات والأرض، وفي كلِّ صامتٍ وناطق، وجامدٍ ونامٍ، ومُقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامتُ ناطق من جهة الدلالة، والعَجْماء مُعْرِبةٌ من جهة البُرهان، ولذلك قال الأول:

«سَل الأرض فقُلْ: مَنْ شَقّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَك، وجَنَى ثمارَك؟ فإن لم تُجِبْكَ حِواراً، أجابتك اعتباراً».

وقال بعضُ الخطباء: «أشهدُ أنّ السّمواتِ والأرضَ آياتٌ دالاّت وشواهدُ قائمات، كلٌّ يؤدّي عنك الحجّة ويَشْهدُ لك بالرُّبوبية موسومةٌ بآثار قُدْرَتك، ومَعَالم تدبيرك، التي تَجلّيْتَ بها لخلقك، فأوصلَت إلى القلوب من وَحشة الفكر، ورجْم الظّنون. فهي على

اعترافها لك، وافتقارها إليك، شاهدةٌ بأنك لا تُحيط بكَ الصِّفات، ولاَ تَحدُّك الأوهام، وأنّ حظَّ الفِكْر فيك، الاعترافُ لك».

وقال خطيبٌ من الخطباء، حين قام على سَرير الإسكندر وهو ميْت: «الإسكندر كان أمس أنطَقَ منهُ اليومَ، وهو اليومَ أوْعَظُ منْهُ أمس».

ومتى دلَّ الشيءُ على معنىً فقد أخبر عنه وإنْ كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكتاً وهذا القول شائع فى جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات. ■

[من «كتاب البيان والتبيين»]

فى البلاغة

اختر من المعانى ما لم يكن مستوراً باللفظ المتَعقَّد، مُغْرِقاً فى الإكثارِ والتكلُّف. فما أكثر منَ لا يْحفل باستهلاك المعنَى مع بَرَاعة اللَّفظ وغموضه على السامع بعد أن يتَّسق له القول، ومازال المعنى محجوباً لم تُكشَف عنه العبارة. فالمعنى بعدُ مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً.

وشرُّ البُلغاءِ من هيَّأ رسْم المعنى قبل أن يهيِّىءَ المعنى، عشقاً لذلك اللفظ، وشَغَفَاً بذلك الاسم، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جرًّا، ويُلزِقه به إلزاقاً. حتى كأنَّ الله تعالى لم يخلق لذلك االمعنى اسماً غيرَه، ومنعهَ الإفصاحَ عنه إلاَّ به.

والآفة الكبرى أن يكون ردىءَ الطبع بطِيءَ اللفظ، كليلَ الحدِّ، شديدَ العُجْب، ويكونَ مع ذلك حريصاً على أن يُعدَّ فى

البُلغاءَ، شديدَ الكَلَفِ بانتحال اسم الأدباء. فإذا كان كذلك خفى عليه فرقُ ما بين إجابة الألفاظ واستكراهه لهاَ.

وبالجملة إنَّ لكل معنًى شريفٍ أو وضيعٍ، هزلٍ أو جدٍّ، وَحزم أو إضاعة، ضرباً من اللفظ هو حقُّه وحظُّه، ونصيبه الذى لا ينبغى أن يجاوزه أو يقصُر دونه.

ومن قرأ كتبَ البُلغاء، وتصفح دواوين الحكماء، ليستفيد المعانَى، فهو على سبيلِ صَوَاب. ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ. والخُسرانُ ها هُنا فى وزن الربح هناك؛ لأنَّ من كانت غايته انتزاعَ الألفاظ حملهُ الحِرصُ عليها، والاستهتارُ بها إلى أنْ يستعملَها قبلَ وقتها، ويَضعَها فى غير مَكانها. ولذلك قال بعض الشُّعراءِ لصاحبه: أنا أشعر منك! قال صاحبه: ولمَ ذاك؟ قال: لأنِّى أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيتَ وابن عمه.

وإنما هى رياضة وسياسة، والرفيق: مصلحٌ وآخرُ مفسد ولابدّ من هِدانٍ[٦] وطبيعةٍ مناسبة.

وسماع الألفاظ ضَارٌّ ونافعٌ.

فالوجْهُ النافع: أن يَدور فى مسامعه، ويغبَّ فى قلبه[٧]، ويختمر فى صدره، فإذا طال مكثُها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها

أكرمَ نتيجة، وثمرتُها أطيبَ ثَمَرَة؛ لأنّها حينئذ تخرج غير مُستَرَقَة ولا مغتصبَة، ولا دالّة على فَقر؛ إذْ لم يكن القصد إلى شيءٍ بعينه، والاعتماد عليه دونَ غيره. وبيْنَ الشيءِ إذا عشّش فى الصّدر ثم باض، ثم فرّخ ثم نهضَ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً، فرْقٌ بيّن.

ومتى اتّكَلَ صاحبُ البلاغة على الهوينَى والوِكال، وعلى السرِقة والاحتيال، لم ينَلْ طائلاً، وشَقّ عليه النزوع، واستولى عليه الهوان، واستهلكه سوءُ العادة.

والوجه الضارّ: أن يتحفّظ ألفاظاً بعينها[٨] من كتابٍ بعينه، أو من لفظ رجل، ثم يريد أن يعدّ لتلك الألفاظ قسمها من المعنى، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً، وحائفاً[٩] سروقاً، ولا يكون إلا مستكرِهاً لألفاظه، متكلفاً لمعانيه، مضطرب لتأليفَ منقطع النظام. فإذا مرّ كلامُه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفّوا عقله، وبَهرَجُوا علمه.

ثم اعلم أنّ الاستكراه فى كل شيءٍ سَمِج، وحيث ما وقع فهو مذموم، وهو فى الطُّرَفِ أسمج، وفى البلاغة أقبح. وما أحسن

حاله مادامت الألفاظ مسموعة من فمِه، مسرودة فى نفسه، ولم تكن مخلَّدة فى كتبه.

وخيرُ الكُتبِ ما إذا أعدْتَ النظر فيه زادَك فى حسنه، وأوْقفك على حدّه. ■

[من «رسالة المعلمين»]

بلغة الدنيا

قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفَصْل من الوصلَ.

وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكَلام.

وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغَزارة يومَ الإطالة.

وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وُضوح الدّلالة، وانتهاز الفُرصة وحسن الإشارة.

وقال بعضُ أهل الهند: جِمال البلاغة البَصَر بالحُجّة، والمعرفةُ بمواضِع الفرصة.

ثم قال: ومن البصرَ بالحُجّة، والمعرفةِ بمواضع الفُرصة، أن تدعَ الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كانَ الإفصاحُ أوْعَرَ طريقةً. وربما كان الإضرابُ عنها صفحاً أبلَغَ في الدَّرِكَ، وأحقَّ بالظَّفَر.

قال: وقال مرّةً: جِماع البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخَرَقِ بما التَبَسَ من المعانى أو غَمُض[10]، وبما شَرَد عليك من اللفظ أو تعذّر.

ثم قال: وزَينُ ذلك كلِّه، وبهاؤُه وحلاوتُه وسناؤُه، أنْ تكون الشّمائلُ موزونةً، والألفظُ معدَّلةً، واللّهجة نقيَّة. فإن جامَعَ ذلك االسنُّ والسمتُ والجمال وطولُ الصمت، فقد تمَّ كلُّ التمام، وكمل كلُّ الكمال. ■

[من «كتاب البيان والتبيين»]

حقيقة الشعر

والقضيّة التى لا أحتشمُ منها، ولا أهابُ الخصومة فيها: أنّ عامّة العَربِ والأعراب والبدو والحَضَر من سائر العرب، أشعَر من عامّة شعراءِ الأمصارِ والقُرَى، من المولّدة والنابتة. وليس ذلك بواجبٍ لهم فى كلّ ما قالوه.

وقد رأيت ناساً منهم يبهرِجون أشعارَ المولدين، ويستسقِطون مَن روَاها. ولم أرَ ذلك قطٌّ إلاّ فى روايةٍ للشعرِ غير بصِيرٍ بجوهر ما يروى. ولو كان له بصرٌ لعرَفَ مَوضعَ الجيِّد ممّن كان، وفى أىّ زمان كان.

وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانىّ وقد بلغ من استجادته لهذين البيتينِ، ونحنُ فى المسجِد يوم الجمعة، أن كلّف رجلاً حتى أحضره دواةً وقرطاساً حتى كتبهما له. وأنا أزعم أنّ صاحب هذين

البيتين لا يقول شعراً أبدا. ولولا أن أدخِل فى الحكم بعض الفتك لزعمتُ أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً، وهما قوله:

لا تحسبَنّ الموتَ موْتَ البلى

فإنّمَا الموتُ سؤالُ الرجالِ

كلاهما موتٌ ولكِنّ ذَا

أفظَعَ من ذاكَ لذلٍّ السُّؤال

وذهب الشيخُ إلى استحسانِ المعنى، والمعانى مطروحةٌ فى الطريق يعرفها العجَمىُّ والعربىُّ، والبَدوىُّ والقَروى، والمدنىّ. وإنما الشأن فى إقامةِ الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرِجِ، وكثرة الماء، وفى صحّة الطّبع وجَودَة السّبك، فإنما الشعر صناعةٌ، وضرْب من النّسج، وجنس من التصوير. ■

[من «كتاب الحيوان»]

الكتاب

(...) **والكتاب** لوعاءٌ مُلِىءَ عِلْماً، وَظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِنَ مُزاحاً وجداً؛ إنّ شئتَ كانَ أبيَنَ من سَحْبانَ وائلٍ، وإن شئت كان أعيا من باقلٍ، وإن شئتَ ضَحَكْتَ مِنْ نوادِرِه، وإن شئتَ عَجَبتَ من غرائبِ فرائده، وإن شئتَ أَلهتْكَ طرائفه، وإن شئتَ أشْجَتْكَ مواعظُه. ومَنْ لَكَ بواعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجِرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أَخرسَ، وببارِدٍ حارٍّ. وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسن بن هانيء:

قُل لِزُهيرٍ إذا انتحَى وشَدَا
أَقْلِلْ أوَ أكْثِر فأَنْتَ مِهْذارُ
سَخُنْتَ مِنْ شِدّةِ البُرُودَةِ حَـ
ـتَّى صِرْتَ عِنْدِي كأنّكَ النارُ

لا يَعْجَبِ السامعُون من صفَتى

كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

ومنْ لكَ بطبيب أعرابىّ، وَمَنْ لَكَ بروميٍّ هنْدىّ، وبفارسى يُونَانىّ، وبقَديمٍ مولَّد، وبميتٍ ممتّع، وَمَنْ لَكَ بشىءٍ يَجْمعُ لَكَ الأولَ والآخرِ، والناقصِ والوافرِ، والخفىّ والظاهر، والشاهدَ والغائب، والرفيعَ والوضيعِ، والغَثّ والسمين، والشكْلَ وخلافَه، والجِنس وضدّه.

وبعد: فَمتى رأيتَ بستاناً يُحَمل فى رُدْن[11]، وروضةً تُقَلُّ فى حجْرٍ، وناطقاً ينطق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء؟ وَمَنْ لك بمؤنِس لا ينام إلاّ بنومِك، ولا ينطق إلاّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِن الأرَض، وأُكتمُ للسرّ من صاحب السرّ، وأحفَظُ للوديعة من أرباب الوديعة، وأَحَفَظُ لما استحْفظَ من الآدميين، ومِن الأعْرَاب المعربين، بل مِنَ الصِّبيانَ قبلَ اعتراضِ الاشتغالَ، ومن العُميانَ قبلَ التمتّع بتمييز الأشخاص، والكتابُ هو الذى يؤدى إلىِ الناس كُتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفّة نقله، وصغر حجمه؛ صامتٌ ما أَسكتّه، وبليغ ما استنطقتَه. ومن لك بمسامرٍ لا يبتديك فى حال شُغْلك، ويدعوك فى أوقاتِ نشاطك، ولا يُحوجك إلِى التجمُّلِ له

والتـذمُّم منَه. ومن لكَ بزائرٍ إنَ شـئـتَ جـعل زيارتَه غـبًا، ووروده خْمساً، وإن شئت لزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكَانَ بعضِك.

والقلمُ مكتفٍ بنفْسه، لا يحتاجَ إلى ما عندَ غيره؛ ولابدَّ لبيان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولاَ الإشارةُ لَمَا فهموا عَنك خاصَّ الخاصّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل فى باب العامّ، إلاَّ أنّه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عما أدّاه، كما اكتفى عامّ العامّ والطبقاتُ التى بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتـابُ هو الجليس الذى لا يُطريكِ، والصـديق الذى لا يغْريك، والرفـيق الذى لا يملّكَ، والمسـتَمـيح االذى لا يستَريثُك[١٢]، والجارُ الذى لا يستبْطيك، والصاحبُ لذى لا يريد استخراجَ مـا عندَك بالملَق، ولا يعـاملُك بالمَسكر، ولا يهـدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذب. والكتابُ هو الذى إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَكَ، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح[١٣] نفسَكَ، وعَمَّرَ صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملوك، وعَرفتَ به في شهر، ما لا تعرفُهُ من أفواه الرجال فى دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كَدِّ الطلب، ومن الوقوف بباب المَكتسب بالتعليم، ومن الجُلوس بين يدَيْ من أنت أفضلُ

منه خُلُقاً، وأكرمُ منه عِرْقاً، ومع السلامةِ من مجالَسَة البُغضاء ومقارنةِ الأغبياء. والكتابُ هو الذى يُطيعُك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعُك فِى السفر كطاعته فى الحضر، وَلا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعتريه كَلالُ السهرِ. وهو المعلّمُ الذى إن افتقرتَ إليه لم يُخفرْك، وإن قَطعتَ عنه المادة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزِلتَ لم يدَعْ طاعتَك، وإن هبّتْ ريحُ أعاديك لم يَنقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلقاً بسبب أو معتصما بأدْنى حبْل، كان لك فيه غنىً من غيره، ولم تَضْطرّك معه وحشةُ الوَحدة إلى جليس السوء. ولو لم يكن مِن فضْله عليكَ، وإحسانه إليك، إلاّ منْعُه لكَ من الجلوس على بابك، والنظرِ إلى المارّة بك، مع ما فى ذلك من التعرُّض للحقوقِ التى تلزَم، ومن فُضولِ النظَر، ومن عادةِ الخوضَ فيما لا يعنيك، ومِن ملابسةِ صغارِ الناس، وحضورِ ألفاظهم الساقطة، ومَعانيهم الفاسدة، وأخلاَقهم الرديّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكَان فى ذلك السلام، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصلِ، مع استفادة الفرع. ولو لم يكن فى ذلك إلاّ أنّه يشغلُك عن سُخْف المُنى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلُّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النعمةَ وأعظَمَ المِنّة.

وقد علمنا أنَّ أفضلَ ما يقطع به الفُرَّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفكاهات ساعاتِ ليلهِم، الكتاب. وهو الشيء الذى لا يرى لَهم فيه مع النيل أثرٌ فى ازدياد تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة، ولا فى صوْنِ عرض، ولا فى إصلاحِ دين، ولا فى تثمير مال، ولا فى رَبِّ صنيعة ولاَ فى ابتداء إنعام. ■

(...)

والكتابُ قد يفضُل صاحبَه، ويتقدَّم مؤلفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانه بأمور: منها أنّ الكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ مَا فيه على كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوُت ما بينَ الأعصار، وتباعُدِ ما بين الأمصار؛ وذلك أمرٌ يستحيل فى واضع الكتاب، والمنازِع فى المسألة والجواب. ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوته. وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كُتُبه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره. ولولا ما أَوْدعت لنا الأوائلُ فى كتبها، وخلّدت من عجيبِ حكمتها، ودوّنت من أنواعِ سيرِها، حتّى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، جمَعنا إلى قليلنا كثيرَهم، وأدركْنا ما لم نكُن ندركُه إلاّ بهم، لقد خسَّ حظُّنا من الحكمة، ولضعُف سببُنَا إلى المعرفة. ولو لجأنا

إلى قدر قوّتنا، ومبلغ خواطرِنا، ومنتهى تجارِبنا لما تدرِكه حوَاسُّنا، وتشاهدُه نفوسُنا، لقلَّت المعرفَةُ، وسقَطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطر فاسداً؛ ولكَلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل. ■

[من «**كتاب الحيوان**»]

فَضل الكتابة

ولـولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبـارِ المخلَّدة، والحكم المخطوطة التى تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلَب سُلطانُ النسيـانِ سلطانَ الذكرِ، ولَمَا كـان للناس مـفـزعٌ إلى مـوضعِ استذكـار. ولو تمَّ ذلكَ لحُرِمْنا أكثرَ االنفع؛ إذ كنّا قـد علمْنا أنَّ مقدار حفظ الناسِ لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يبلغ من ذلك مبلغًا مذكوراً ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محمودا. ولو كُلِّفَ عامَّةُ من يطلب العلمَ ويصطَنع الكتب، ألاّ يزال حافظا لفهرست كتبه لأعجزَه ذلك، ولكلِّفَ شططًا، ولَشَغله ذلك عن كثير مما هو أولى به. وفهمُك لمعانى كلام الناس، ينقطع قبل انقطاعِ فهْمِ عيْن الصوتِ مجرَّدا، وأبعَدُ فهمك لصوتِ صاحبك ومُعاملك والمعاوِن لك، ما كان صياحًا صرفًا، وصوتًا مصمتًا ونداءً خالصا، ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدلالة. فجُعِل اللفظُ

لأقـرَب الحـاجـات، والصـوتُ لأنفَسَ من ذلَك قليـلا، والكتـابُ للنازحَ مِن الحـاجَـات. فـأمّا الإشـارة فـأقـربُ المفـهـومِ منهـا: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأَجفـان، وليُّ الشفـاه وتحريك الأعناق، وقْبض جلدة الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبلَ، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمّ ينقطع عملُها ويدرسِ أثرها، ويموت ذِكرُها، ويصير بعد كلُّ شيءٍ فَضَلَ عن انتـهـاء مـدَى الصـوت ومنتـهى الطرف، إلى الحـاجـة وإلى التـفـاهم بالخطوطِ والكتب. فـأيُّ نفعٍ أعظمُ، وأيُّ مرْفقٍ أعوَنُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا!! وليس للعقْد حظُّ الإشارةِ فى بُعد الغاية. ■

[من «كتاب الحيوان»]

فضل القلم

فلذلك وضع الله عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنْصب الشريف حين قال ﴿ن والْقَلَمَ وَمَا يسطرون﴾ فأقسم بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأْوَه، ولا يَشُقُّ غبارَه ولا يجرى فى حلبته، ولا يتكلف بعْدَ غايته. لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة[14] أكثرَ منْ حاجاتهم فى سائر الأماكن، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائمة واكدة، وراهنةً ثابتة، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ القلمَ أمراً يكونُ فى الغَيبة وعندَ النائبة، إلاَّ ما خُصَّت به الدواوين؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثرُه أعَمُّ، فلذلك قدّموا اللسانَ على القلم. فاللسان الآنَ إنّما هو فى منافع اليدِ والمرافق التى فيها، والحاجات التى تبلغها. ■

[من «كتاب الحيوان»]

اللسان وحفظ السر

وإنّما اللسان تَرجُمان القلب، والقلب خزانة مستحفَظة للخواطر والأسرار، وكلٌّ ما يعيه من ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ، وما تولّده الشّهَوات والأهواء، وتنتجه الحكمة والعلم.

ومن شأن الصدر ـ على أنه ليس وعاء للأجرام، وإنّما يعى بقدرةٍ من الله لا يعرف العبادُ كيف هى ـ أن يضيق بما فيه، ويستثقل ما حمل منه، فيستريح إلى نبذِه، ويلذّ إلقاءه على اللسان. ثم لا يكاد أن يشفيه أّن يخاطب به نفسَه فى خلواته حتّى يفضىَ به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه. كلّ ذلك مادام الهوى مستولياً على اللسان، واستعملَ فضولَ النَّظر فدعَتْ إلى فضول القول. ●

فإذا قهر الرأى الهوى فاستولى على اللسان، منعهَ من تلك العادة، وردَّه عن تلك الدُّربة، وجشَّمه مؤونة الصَّبر على سترِ الحلم والحكمة.

واعلمْ يقيناً أنّ الصَّمت سَرَمَداً أبداً، أسهل مَراماً ـ على ما فيه من المشقَّة ـ من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز، والقَصد للصَّواب، لما قدْمنا ذكره من علة مجاذبة الطِّباع؛ ولأنّ من طبع الإنسان محبّة الإخبار والاستخبار. وبهذه الجبلَّة التى جُبِل عليها الناس نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباَقين، عن الغائب إلى الشاهد، وأحبَّ الناس أن يُنقَلَ عنهم، ونقَشوا خواطرهم فى الصُّخور، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل. وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء، ولم يحضر آياتِ الرُّسُل، وقام مجىء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقامَ العيان؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات؛ وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل، وسلَّما إلى التصديق، وعوناً على الرضا بالتقليد.

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحلّ. ولكن الله عز وجلّ حبّبها إليهم لهذا السبب، كما جعل عشق النّساء داعيةً للجماع، ولذّةَ الجماع سبيلاً للنّسل، والرقّة على الولد عوناً على التربية والحضانة ـ وبهما كان النشوّ والنماء ـ وحُبّ الطعامِ والشراب سبباً للغذاءَ سبباً للبقاء وعمارة الدنيا.

وليس قولنا «طُبع الإنسانُ على حبّ الإخبار والاستخبار» حجّةً له، لأنَه طبع على حُبّ النساء ومُنِع الزّنى، وحُبّب إليه الطعامُ ومُنع من الحرامِ. وكذلك حُبّبّ إليه أن يُخبر بالحقّ النافع ويستخبر عنه، وجُعلت فيه استطاعة هذا وذاك، فاختار الهوى على الرأى.

وقال بعض الشعراء:

ألم ترَ أنّ وُشاة الرجالِ

لا يتركون أديماً صحيحاً

فلا تُفْشِ سِركَ إلاّ إليك

فإن لكلّ نصيح نصيحاً

والسرُّ ـ أبقاكَ الله ـ إذا تجاوز صدرَ صاحِبِه وأفلتَ من لسانه إلى إذنٍ واحدةٍ فليس حينئذ بسرٍّ، بل ذاك أَوْلَى بالإذاعة، ومفتاحُ النَّشر والشُّهرة. وإنّما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية. وهو مع قلّة المأمونين عليه، وكَرْب الكتمان، حَرِىٌّ بالانتقال إليها فى طرفة عين. ■

[من «**رسالة فى كتمان السرّ وحفظ اللسان**»]

تفضيل النطق على الصمت

إنّي وجدتُ فضيلةَ الكلام باهرةً، ومَنْقَبَةَ المنطقِ ظاهرةً، فى خلالٍ كثيرة، وخصال معروفة. منها: أنّك لا تؤدّى شُكرَ الله ولا تقدر على إظهارِه إلاَّ بالكلام.

ومنها: أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانةَ عن مأربك إلا باللسان. وهذان فى العاجل والآجِلِ مع أشياءَ كثيرة لو يَنْحُوها الإنسانُ لوجَدَها في المعقول موجودة، وفى المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة، وفى التدبير ظاهرة.

ولم أجِدْ للصمت فضلاً على الكلام ممّا يحتمله القياس، لأنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به. ولو كان الصّمْتُ أفضلَ والسُّكوتُ أمثَلَ لما عُرِفَ للآدميين فضلٌ على غيرهم، ولا فُرِقَ بينهم وبين شىءٍ من أنواع الحيوان وأخياف

الخَلْق[١٥] فى أصناف جواهرها وإختلاف طبائعها، وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها فى أعيَانها وألوانها. بل لم يَمكن أنْ يميِّز بينهم وبين الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة، وكان كلٌّ قائمٍ وقَاعد، ومتحركٍ وساكنٍ، ومنصوب وثابتٍ، فى شرعٍ سواءٍ[١٦] ومنزلة واحدة، وقسمةٍ مشاكلة؛ إذْ كانوا فى معنى الصمت بالجثّة واحداً، وفى معنى الكَلام بالمنطق متبايناً[١٧] ولذلك صارت الأشياء مختلفةً فى أشكال خلقتها متّفقة بتركيب جواهرها، وتأليف أجزائها، وكمال أبدانها، وفى معنى الكمال متباينةً عند مفهوم نَغَمَاتها، ومنظومِ ألفاظها، وبيانِ مَعالمها وعَدْل شواهدها.

معِ أنى لم أنكر فَضِيلة الصَّمت، ولم أهجِّن ذكره إلاّ أنّ فضله خاصٌّ دون عامٍّ، وفضلَ الكَلام خاصٌّ وعم، وأَنّ الإثنين إذا اشتمل عليهما فضلٌ كان حظُّهما أكثر، ونصيبهما أوفر من الواحد. ولعلّه أن يكون بكلمةٍ واحدةٍ نجاةُ خلقٍ، وخلاصُ أمّة.

ومن أكثر ما يُذكر للسَّاكت من الفضل، ويُوصف له من المَنْقَبة أن يقال يسكُت ليتوقّى به عن الإثم، وذلك فضلٌ خاصٌّ دون عامٍّ.

ومن أقلِّ ما يُحتكَم عليه أن يقال غبىٌّ أو جاهل، فيكون فى ذلك لازمُ ذنْبٍ على التوهُّم به، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهلِ عليه ما ورّط فيه صاحبه من الوِزْرِ.

والذى ذُكِرَ من تفضيل الكلامَ ما يَنطِقُ به القُرآن، وجاءَت فيه الرِّوايات عن الثِّقات، فى لأحاديث المنقولات، والأُقاصيص المرويَّات، والسَّمَر والحكايات، وما تكلَّمت به الخطباءُ ونطقَتْ فيه البلغاءُ ـ أكثر من أن يبلَغ آخرُها، ويُدركَ أوَّلُها، ولكنْ قد ذكرتُ من ذلك على قدْرِ الكِفاية، ومن الله التوفيقُ والهداية.

ولم نَرَ الصمتَ ـ أسعدك الله ـ أحمَدَ فى موضع إلاَّ وكان الكلامُ فيه أحمد، لتسارُعِ الناسِ إلى تفضيل الكلام، لظهورِ عِلَّتِه، ووضوحِ جليَّته، ومَغَبَّة نفْعه.

وَاعلَمْ ـ حفَظك الله ـ أنَّ الكلامَ سببٌ لإيجاب الفضل، وهدايةٌ إلى معرفة أهل الطوْل.

ولولا الكلامُ لم يكنْ يُعرَفُ الفاضلُ من المفضول، فى معانٍ كثييرة، لقول الله عزَّ وجلّ، فى بيان يُوسف عليه السلامُ وكلامه عند عَزيزِ مصر، لمَّا كلَّمه فقال: ﴿إنَّكَ اليوْمَ لَدَيْنَا مكينٌ أمينٌ﴾. فلو لم يكن يوسُفُ عليه السلامُ أظهَرَ فضْله بالكلامِ، والإفصاحِ بالبيان، مع مَحاسنه المُونقةِ، وأخلاقه الطَّاهرة، وطبائعه الشريفة، لمَّا عَرِف العزيزُ فَضلَه، ولا بلغَ تلك المنزلةَ لديه، ولا حَلَّ ذلك المحلّ

منه، ولا صار عنده بموضع الأمانة، ولكانَ فى عدادِ غيرِه ومنزلة سواهُ عند العزيز. ولكنَّ الله جَعَلَ كلامَه سبباً لرفعِ منزلتـه، وعُلوِّ مرتبته، وعِلَّةً لمعرفة فضيلته، ووسيلةً لتفضيل العزيز إياه.

ولم أرَ للصمت فضيلةً فى معنىً ولا للسُّكوت منْقُبةً فى شيءٍ إلا وفضيلةُ الكلامِ فيها أكثر، ونصيبُ المنطقِ عندها أوفر، واللفظ بها أشهر. وكفى بالكلامِ فضلاً، وبالمنطق منقُبة، أنْ جعَلَ الله الكلامَ سبيلَ تهليله وتَحميده، والدَّالَّ على معالم دِينِه وشرائع إيمانه، والدَّليل إلى رضوانه. ولم يرضَ مَن أحدٍ من خلق إيماناً إلاَّ بالإقرار، وجعل مسلكَه اللِّسان، ومجراه فيه البيان، وصيَّره المُعبر عمّا يَضمره والمُبين عمّا يُخبره، والمنبيء عن ما لا يستطيع بيانَه إلاَّ به. وهو تَرجُمانُ القَلبِ. والقلب وعاءٌ واعٍ.

ولم يُحمَدَ الصَمْت من أحدٍ إلا توقِّياً لعجزه عن إدراك الحقّ والصَّوابِ فى إصابة المعنى. وإنّما قاتل النبىُّ ﷺ المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه، ليُقرُّوا به، فإذا فعلُوه حُقِنتْ دماؤهم، وحُرِّمت أموالُهم، ورُعيتْ ذمَّتهمْ. ولو أنَّهم سكتوا ضنّاً بدينِهم لم يكُنَ سبيلُهم إلاَّ العطَب.

فأعلم أنَّ الكلام من أسباب الخير لا من أسباب الشر.

والكلامُ ـ أبقاكَ الله ـ سبيلُ التمييز بين الناس والبهائم، وسببُ المعرفة لفضل الآدميّين على سائر الحيوان، قال الله عز وجلّ: ﴿ولقدْ كرّمْنَا بنى آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فى البرِّ والبحرِ﴾. كرمّهم باللسان وجمّلهم بالتدبُّر.

ولو لم يكن الكلامُ لما استوجب أحدٌ النِّعمة، ولا أقام على أداءِ ما وجَبَ عليه من الشُّكْر سبباً للزيادة، وعلّة لامتحان قلوبِ العَباد. والشكرُ بالإظهار فى القول، والإبانةِ باللِّسان. ولا يُعرفُ الشكرُ إلاّ بِهِما.

فهل تُرى ـ أبقاك الله ـ أنّه وجَبَ لصاحب العَشْر ذلك وفَضل به علي صاحبه إلاّ عند استعماله بالنُّطق به لسانَه. ولم يلزم الصْمت أحدٌ إلاّ على حسب وقوع الجهلِ عليه. فأمّا إذا كان الرَّجُلُ نبيها مميزاً، عالماً مفوّها فالصّمتُ مُهجّنٌ لعلمه وساترٌ لفضله. كالقدّاحة لم يستبن نَفْعُها دون تزنيدَها(١٨). ولذلك قيل: «من جَهل عِلْماً عاداه».

ولم أجدِ الصّامت مستعاناً به فى شيءٍ من المعانى، ولا مذكوراً فى المحافل. ■

[من «رسالة فى تفضيل النطق على الصمت»]

الهوامش

١ ـ يقال فى المثل: «أصنع من سرفة»، وهى: دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتا مربعا من دقائق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناوس.

٢ ـ البزلاء: الرأى الجيد والشدائد.

٣ ـ اجترار المنافع: احتلابها.

٤ ـ التنوق فى الشيء: التجود والمبالغة فيه، مثل التأنق.

٥ ـ الطباع: الطبيعة والسجية.

٦ ـ الزابج، بفتح الباء وكسرها: جزيرة فى أقصى بلاد الهند، وراء بحر هركند فى حدود الصين.

٧ ـ فغمة الطيب رائحته.

٨ ـ البنة، بالفتح: الرائحة الطيبة.

٩ ـ المباداة: المجاهرة.

١٠ ـ الصفح: البسط.

١١ ـ انتقض: انتكث.

١٢ ـ النضح: الدفاع والذبّ بالحجة.

١٣ ـ الكلوح: التكشر وبدو الأسنان، والقطوب: تزوى ما بين العينين عند العبوس.

١٤ ـ أفلجه على خصمه: غلبه. والخصام: جمع خصم.

١٥ ـ ناسمة مناسمة: دنامنة وشامّه، وحادثه، وسارّه. والمثافنة: المجالسة والمحادثة.

١٦ ـ الحسك: الضغن والحقد.

١٩ ـ الطوائل: جمع طائلة، وهى الوتر والذحل.

٢٠ ـ الجمام، كسحاب: الراحة.

٢١ ـ الشعار: ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب.

٢٢ ـ العظيم الوقار. والركين الرزين.

٢٣ ـ الحبوة: أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

٢٤ ـ السماط، بالكسر: الصف.

٢٥ ـ غضن وجهه: جعل به غضونا، وذلك بأن يقبض جلده.

٢٦ ـ أزمت الناس: أي أشدهم وقاراً وسكوناً.

٢٧ ـ تشبع: تزين بما ليس عنده. وفي الحديث: «المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور».

٢٨ ـ «أرزن»: أثقل.

٢٩ ـ «المبرح»: الجاهد الشديد.

٣٠ ـ «تزميله»: لف إنائه بغطاء مبلول ليبرد، كما يظهر لنا.

٣١ ـ الخوان (بضم الخاء وكسرها) الذي يؤكل عليه.

٣٢ ـ البدوات: الآراء التي تبدو، أي تظهر.

٣٣ ـ البرنكان ضرب من الثياب.

٣٤ ـ «أصبح» دخل في الصباح.

٣٥ ـ تفقد الشيء: طلبه عند غيبته.

٣٦ ـ «ياهناه»: يارجل.

٣٧ ـ جيب القميص ما بفتح على النحر. وجيبه بالتشديد: جعل له جيبا.

٣٨ ـ مقاديم القميص: ما استقبلت منه.

٣٩ ـ كان يقبل إلخ: لجنى عليه ويرميه بالمعايب.

٤٠ ـ يطالبه إلخ، الطائلة هنا: الثأر، أي كأن له عنده دما يطلبه به.

٤١ ـ «الحضر»: العدو.

٤٢ ـ فكيف إلخ، أي فكيف حال الكظيظ مع المشي النكير. والنكير: الصعب الشديد.

٤٣ ـ ضرب الجرح ضربانا: اشتد وجعه.

٤٤ ـ قال في الأساس: وما فيه حاكة، أي سن. وجمعها حواك، لأن الأسنان يحك بعضها بعضا.

٤٥ ـ درس الحب يدرسه (بضم الراء) درسا ودراسا (بكسر الدال).

٤٦ ـ جمع رحى.

٤٧ ـ المدقة، من وجن القصار الثوب.

٤٨ ـ «تجلجل»: تحرك.

٤٩ ـ جمع عمر (بفتح فسكون): اللحم الذي بين الأسنان.

٥٠ ـ والعجب إلخ، جملة «لا تتخم» خبر (العجب)، أى عدم اتخامك. وهو مما سبك بغير حرف سابك.

٥١ ـ (القرقرة) مصدر قرقر البطن: صوت.

٥٢ ـ «قال الخوان»: نطق بلسان حاله، على المجاز. أى إن الذى يقول: لا أريد الطعام ولا أشتهيه، أشدّ على الطعام وأعنف ممن لا يقول هذا ـ أى فأنت تقول: «أصبحت إلخ»، وأنت إذا جلست إلى المائدة كنت ويلا عليها وحربا.

٥٣ ـ المسجد الجامع: االذى يجمع أهله.

٥٤ ـ اللبأ: أول اللبن عند الولادة.

٥٥ ـ يريد بالغلظ ثقله على المعدة.

٥٦ ـ الفالج: مرض يحدث فى أحد شقى البدن طولا، فيعطل إحساسه وحركته.

٥٧ ـ الغليل: شدّة العطش، أو حرارة الجوف.

٥٨ ـ النفاج: من يفتخر بما ليس عنده.

٥٩ ـ الأعذاق: جمع عذق (بكسر فسكون)، وهو نقو (بكسر فسكون) النخلة الذى به البلح.

٦٠ ـ جمع عرجون، وهو العذق إذا يبس وأعوج.

٦١ ـ سوق الكلاء: موضع بالبصرة.

٦٢ ـ الداذى: شراب الفساق، وهو الخمر.

٦٣ ـ الدبْس: عصارة االتمر.

٦٤ ـ المرزئة: النقص، والمقصود هنا إنقاص الذباب للطعام.

٦٥ ـ كتابة عن أمد الحياة.

١ ـ الفريس: المفترس، كالفريسة. والمنيب: المعض بالأنياب.

٢ ـ الشحطة: أثر سحج يصيب جنباً أو فخذاً أو نحوهما.

٣ ـ الروبة بالضم: القطعة من اللحم.

٤ ـ التمريض: حسن القيام على المريض وكأنّ الفطيم فى سبيل المريض.

٥ ـ الحلقى: الذى فسد عضوه فانعكس ميل شهوته، وهو منّ ألفاظ المولدين.

٦ ـ النزق: الطيش والتسرع.

٧ ـ القاطول: نهر كان فى موضع سامرا قبل أن تعمّر.
٨ ـ أصفى الرجل: نفد ماء صلبه.
٩ ـ الولاية، بالفتح وتكسر: مقابل العداوة.
١٠ ـ الدهرى، بفتح الدال: الذى يقول بقدم الدهر، ولا يؤمن بالبعث.
١١ ـ التعشيث: الترجيع فى الصوت.
١٢ ـ هو موضع معسكر لجنود المهدى، وهو مكان معروف بالرصافة.
١٣ ـ فيلان: بلد وولاية قرب باب الأبواب من نواحى الخزر.
١٤ ـ ممن سمى بذلك دغفل بن حنظلة الشيبانى النسابة.
١٥ ـ الترسة: جمع ترس.
١٦ ـ الحجف بتقديم الحاء: الترس المصنوع من الجلد.
١ ـ العقد: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين.
٢ ـ لغواً: أى لا يعتد به، والبهرج: الباطل.
٣ ـ الترجمان: المفسر للسان.
٤ ـ الشكل: دل المرأة وغنجها وغزلها.
٥ ـ التقتل، بالقاف: الاختيال والتثنى والتكسر فى المشى.
٦ ـ الهدان: المهانة.
٧ ـ يغب: يمكث.
٨ ـ تحفظ الكتاب: استظهره شيئاً بعد شيء.
٩ ـ من الحيف والجور.
١٠ ـ الخرق، بالتحريك: الدهشة والحيرة.
١١ ـ الردن: أصل الكم.
١٢ ـ المستميح: طالب العرف. واستراثه: استبطأه.
١٣ ـ البجح محركة: الفرح، وبجح به كفرح، وبجحته تبجيحا فتبجح: أى أفرحته ففرح.
١٤ ـ الحضر بالتحريك والحضرة والحاضر والحضارة بالكسر ويفتح: خلاف البادية.
١٥ ـ الأخياف: الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال.

١٦ ـ الشرع، بالتحريك، ويقال بالفتح أيضاً: السواء، يقال هذا شرع سواء.
١٧ ـ أي شيئاً متبانياً.
١٨ ـ المراد بالتزنيد استعمال الزناد.

الجاحظ

أبو عثمان (عمرو ابن بحر بن محبوب الكنانى البصرى) أعظم ناثرى العصر العباسى وأكثر بلغائه تصنيفاً وكتابة وأثراً. جمع بين علوم الأوائل والأواخر، وأتقن رواية أهل النقل ودراية أهل العقل، وانحاز فى كتابته إلى العقل الذى رآه حجة الله على خلقه، وسبيلهم إلى صنع حياتهم بإراداتهم الحرة، فمضى فى طريق علماء الكلام الذين وصفوا بأنهم فرسان العقل، وأن ما يحسنونه من علوم الدين فى وزن ما يحسنونه من معارف الفلسفة، واختط لنفسه سبيلاً بينهم، مجتهداً لا متبعاً، فتميز بآراء نسبت إليه، وجماعة تحلقت حوله تحت مسمى: «الجاحظية».

وكانت كتابته الإبداعية الوجه الآخر من كتابته الفكرية، إعلاء من شأن العقل الذى يبتدع لغاته الكاشفة عن وعوده، واحتفاء بالجذور العربية الأصيلة المنفتحة على كل جديد يضيف إليها بالقدر الذى تضيف إليه، وتأكيد للمعنى الإنسانى الذى فتح أفق الهوية على علوم وفنون المعمورة البشرية بأسرها دون

تعصب أو تحيز، ومن غير اتباع أو تقليد، طلباً للحكمة التى هى - كالمعرفة والفن - ضالة المؤمن. وكان ذلك تجسيد لحلم التنوع البشرى الخلاق، وسعياً إلى تتميم ما لم يقل فى السابقون على مجرى عادة اللسان وسنة الزمان وخصوصية المكان.

ولد الجاحظ بمدينة البصرة، موطن المعتزلة، حوالى سنة ١٥٠هـ (= ٧٦٧م). وأفاد من انفتاح علمائها على معارف الدنيا القديمة التى أصبحت ميسورة لأمثاله باللسان العربى. وأكسبه نهمه المعرفى المذهل صفة الموسوعية التى دفعته إلى الكتابة فى كل مجال، كما لو كان حريصاً على أن يستحضر فى كتبه.

ورسائله كل ما فى الدنيا حوله، وكما لو كان يريد لكتاباته المتنوعة إلى درجة غير مسبوقة أن تكون مرايا متغايرة الخواص، ينعكس عليها التعدد اللانهائى لحضور الإنسان فى الكون، ذلك الحضور الذى يجعل من الإنسان العالم الأصغر الذى ينطوى على العالم الأكبر. هكذا، كتب عن معنى التوحيد والعدل وحجج النبوة ونظم القران، كما كتب عن النخل والزرع والمعادن وأنواع الحيوان، وعن تعدد الأجناس الموجودة فى زمنه (الترك، والسودان، والهند، والسند، والفرس) وتعددد اتجاهات الفكر (الشيعة بعامة والزيدية بخاصة، والرافضة، والخوارج، والعباسية، والعثمانية) وعن الحرف والطوائف (المعلمين، والكتاب، والصناع، والزراع، والقيان، والجوارى، والخصيان) وعن العوائد والأخلاق والملامح النفسية للنماذج والأنماط

البشرية، فكتب عن الحب والعشق، الكره والحسد، الجد والهزل، المعاد والمعاش، فضلا عن محبة الأوطان. ولم تفته الكتابة عن النبيذ أو رواية الملح والنوادر بلهجاتها، واصلاً ما كتبه عن الغلمان بما كتبه عن البخلاء، غير مفلت حتى لصوص الليل ولصوص النهار، بل البرصان والعرجان والعميان من مرايا رسائله وكتاباته التى انعكس عليها كل شئ فى زمنه.

ولذلك تعددت الصفات الفنية لكتابه الجاحظ التى تجاورت فيها المتعارضات، فجمعت ما بين الإيجاز والإطناب، لحن العامة وفصاحة الخاصة، التوفر على الموضوع والواحد والاستطراد، الاستنباط والاستشهاد، القياس المنطقى والانطباع الذاتى، الرصانة الجهمة والسخرية التهكمية، الرواية والمعاينة، السرد والحكاية، التجريد والتصوير الحسى. وكانت هذه الصفات، فى اختلافها وتعارض لوازمها، نتيجة طبيعية للآفاق الموسوعية الرحيبة التى انطلقت منها كتابة الجاحظ، سواء فى تعدد أدوارها الفكرية والاجتماعية والسياسية، أو تعدد جوانبها الإبداعية التى اتسعت بحدقتى عينيه الجاحظتين اللتين لم تتوقفا عن التحديق فى علاقات عصره المتشابكة إلى أن توفى فى شهر المحرم سنة ٢٥٥هـ (= ٨٦٨ ـ ٨٦٩ ميلادية) تاركا تراثه العظيم الذى نقدم أقل القليل من نماذجه.

الفهرس



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والف والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

1999
مهرجان القراءة للجميع

١٢٥ قرشاً

للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة